التاريخ الكلي للعالم

د. فتحي محمد نبيه شعبان

مدرس بقسم الفلسفة

بكلية آداب قنا ـ جامعة جنوب الوادي

التاريخ الكلى للعالم عند هيجل

مقدمة :

رسم هيجل صورة التاريخ الكلى للعالم وقد حدد فيها فكرة الحرية وسعى جاهداً إلى رصد حركتها وتتبعها أيضا حتى تحققها العينى المشخص . والتاريخ الذي يعرضه هيجل وتعانيه إنسانية بائسة ومعذبة إنما هو تاريخ الصراعات الدائمة والحروب المدمرة ، إنه التاريخ الكلى للعالم ، وإنه أيضا تاريخ روحى منظم يخضع لمنطق الجدل ثلاثى الحدود . وملامح هذا التاريخ عنده تتضمن وجود صراع شديد بين الحرية الذاتية والحرية الموضوعية ينتهى دائما إلى التوفيق والتأليف بينهما .

وللبرهنة على وجود منطق جدلى تنتظم بمقتضاه أحداث التاريخ وتتحرك الروح من خلاله من أجل تحقيق فكرتها قام هيجل بحشد الوقائع التاريخية ، وقسم التاريخ الكلى للعالم على أساس الجدل إلى ثلاث مراحل تاريخية وهى : الحقبة الشرقية ، والحقبة اليونانية الرومانية ، والحقبة الحديثة ، ففى الأولى لا وجود للحرية إلا للحاكم وحده ، وفى الثانية لا وجود للحرية إلا للبعض، وفى الثالثة الحرية للجميع . ومن ثم فقد اخترت التاريخ الكلى للعالم موضوعا لهذا البحث .

وفى ضوء هذا كله فقد وضعت هدفا لهذا البحث وهو كيف أخضع هيجل التاريخ للجدل وكيف تحقق الروح مضمونها تاريخياً فى إطار جدلى . ولتحقيق هذا فقد اتبعت المنهج التحليلى التاريخى .

ومن هنا فقد اشتملت هذه الدراسة على عدة نقاط رئيسية نذكرها على النحو الآتى :

١ ـ التاريخ الفلسفى للعالم .

٢ ـ نظرية هيجل فى التاريخ .

أ ـ المنهج الجدلى .

ب ـ الجدل وتطور الشعور بالحرية فى التاريخ .

جـ ـ مقولة التغير .

٣ ـ الحركة الجدلية للحرية الموضوعية والحرية الذاتية فى التاريخ .

أ ـ الحقبة الشرقية .

ب ـ الحقبة اليونانية والرومانية .

جـ ـ العالم الجرمانى .

٤ ـ أهم النتائج التى توصلت إليها الدراسة .

وأخيراً فإننى أرجو أن أكون قد وفقت فى إحياء جانب من نظرية هيجل فى التاريخ ، فإن كنت قد أصبت فهذا فضل من الله سبحانه وتعالى ، وإن كنت قد أخطأت فمن نفسى ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها .

"إن تاريخ العالم ليس إلا تقدم الوعى بالحرية"[1]

هيجل

التاريخ الفلسفى للعالم

استهل هيجل مؤلفه الكبير "فلسفة التاريخ" بالإشادة بالتاريخ الفلسفى للعالم فبين أنه ليس مجرد مجموعة من التأملات العامة التى تدور حول التاريخ أظهرتها قراءة وثائقه .

---

[1] ولد جورج فيلهلم فردريك هيجل فى شتوتجارت فى سنة ١٧٧٠ . وتوفى سنة ١٨٣١ وكان والده موظفا حكوميا بسيطا فى محكمة دوقية فى وارتميرج . وكانت الفترة التى عاشها هيجل ذات أهمية سياسية وحضارية وفلسفية .

وفى عام ١٨٣٠ ، واعترافا بمكانته ، ثم اختيار هيجل رئيسا لجامعة برلين ، وفى العام التالى ، وفى سن الحادية والستين سقط مريضا فجأة ومات فى اليوم التالى وهو نائم.

وقد كتب أحد زملائه يقول "يا له من فراغ فظيع فقد كان الركن الرئيسى فى جامعتنا تلك هى حياة هيجل ونشأته وتطوره وأعماله وظروف عصره .

ونجد بعد ذلك أن أتباع هيجل من بعده قد انقسموا إلى فريقين حول كيفية تطبيق أفكاره على السياسة فالهيجليون [اليمينيون] اعتقدوا بأن عملية التطور التاريخى تقودنا بطريقة آلية إلى أفضل النتائج الممكنة ، وكذلك نظروا إلى الدولة البروسية المعاصرة على أنها أعلى مثل فى تقدم التاريخ .

وبصورة مماثلة ، اعتقدوا بوجود نظرات سياسية محافظة ، ونزوع نحو تأكيد العناصر الدينية فى مذهب هيجل . [واليساريون] أو الشباب الهيليجيون اعتقدوا بأن المثل قد تحقق ، وأن الدول القومية المعاصرة كانت بعيدة عن ذلك المثل ، وإنه كان من واجب الناس أن يساعدوا فى تغيير الطبقة القديمة ويعاونوا فى تطوير المرحلة التالية للتاريخ الإنساني وبصورة مماثلة ، فإنهم تمسكوا بالنظرات السياسية الراديكالية ، والميل إلى مماثلة الله بالإنسان ، وهكذا تتولد النظرة الملحدة الأساسية .

ومن أهم أعمال هيجل كتاب "فنومنولوجيا الروح" وعلم المنطق الذى ظهر فى ثلاث أجزاء . وقد كتب ونشر كتابه عن فلسفة الحق ، وحاضر فى فلسفة التاريخ ، وفلسفة الدين ، والجمال ، وتاريخ الفلسفة .

ويفترض أنها تقدم أمثلة لها ، إذ المقصود من هذا تاريخ العالم ذاتـه . وعلـى هذا الأساس فقد قام هيجل بفحص المناهج التى تدرس التاريخ . وصنفها إلى ثلاث مناهج رئيسية وهى:

التاريخ الأصلى Original History والتاريخ التأملى Reflective History والتاريخ الفلسفى Philosophical History وفيما يلى بحث هذه الأنواع الثلاثة من التاريخ كما صورها هيجل .

أولاً التاريخ الأصلى :

تتمثل الملامح الرئيسية للتاريخ الأصلى فى خلوه من كل تأمل ونظر عقلى ، وهذه النقطة بالذات لها قيمتها وأهميتها عند هيجل ، إذ التاريخ الفلسفى عنده يقوم على أساس العقل ، والمؤرخ الذى ينتسب إلى التاريخ الأصلى لا يستعين بالعقل فيما يقدمه من مادة تاريخية ، إنه يقدم لنا مادة خاما دون تدخل من جانبه فيها ، فهو يصف الأحداث كما تقع بالفعل خلال فترات زمنية قصيرة ، يقول هيجل "والمواد التى يشكل منها الصورة العامة التى يقدمها هى فترات قصيرة من الزمان ، وأشكال فردية من الحوادث والأشخاص وسمات فردية غير منقحة" . [1] ويقول أيضا فى نفس الموضع "وأما التأملات النظرية فليست من اختصاصه" . [2] وبمناسبة الكلام عن التاريخ الأصلى يتعين الإشارة إلى أن المؤرخ الذى ينتمى إلى هذا النوع من التاريخ يسعى إلى تقديم صورة متكاملة للأجيال اللاحقة حتى يكون لهم نفس الوضوح الذى كان له . وأن يعايشوا نفس الأحداث التى عايشها. تلك هى الصورة التى حدد هيجل معالمها للتاريخ الأصلى .

---

(1) Hegel – The philosophy of History – Translated by J . Sibree – New York – 1956 P : 2 .

إن مقدمة فلسفة التاريخ هى ذاتها محاضرات فى فلسفة التاريخ وقد نقل هذه المحاضرات إلى العربية دكتور إمام عبد الفتاح إمام .

(2) Ibid P :2 .

ثانياً التاريخ التأملي :

والنوع الثانى من التاريخ هو التاريخ التـأملى ويعتبر هذا النـوع أشد عمقا وأكثر رحابـة مـن التـاريخ الأصلـى ، لأنـه لا يحصر نفسـه فـى إطـار الحـاضر الحـى والظـروف المحيطـة بـه بـل إنـه يعلـو علـى روح العصـر ويتجاوزها . ويبتدى التاريخ التأملى أمام هيجل على صور شتى يصنفها فـى أربع صور رئيسية :

الصـورة الأولـى مـن التـاريخ التـأملى وفيـها يحـدد هيجـل الاختـلاف الواضح بين التاريخ الأصلى والتاريخ التأملى ، ففى التـاريخ الأصلـى لا محـل للنظر العقلى فى المادة التاريخية ، وروح المؤرخ هى ذاتها روح المادة التـى تستهويه وروح الأحداث التى عاشـها . وفـى التـاريخ التـأملى نجـد روحـا مختلفة ومتميزة عن روح المضمون الذى يعرضه . وفى هذه الصورة الأولى من التاريخ التأملى يؤكد هيجل أن دراسة المادة التاريخية هى الشغل الشـاغل للمؤرخ . فالباحث يتجه نحو دراسة التاريخ الكلى بهدف الوصـول إلـى رؤيـة كلية لتاريخ شعب ما ، أو بلد ما ، أو العالم ككـل . ومما هو جدير بالاهتمـام فى مثل هذا اللون من الكتابة التاريخيـة المبـادىء التـى يرجـع إليـها المؤلـف بواعث ونتـائج الأعمـال والأحداث التـى يصفـها وكذلك الدوافـع التـى تحـدد صورة روايتـه [1] . يقـول هيجـل "إن التـاريخ الـذى يطمـح أن يسـع فـترات طويلة من الزمان ، أو أن يكون كلياً ، لابد أن يمتنع بحق عن محاولة إعطـاء تمثيلات فردية للماضى بوصفها موجودة بالفعل . إنه لابـد أن يلخص صوره من خلال تجريدات ، ولا يتضمن هذا تقريبا استبعاد الحوادث والأعمال بل كـل ما يمكن أقدر المفكرين أن يختصرها اختصـاراً" [2] مـن هنـا نلاحظ أن هـذه الصورة الأولى مـن التـاريخ التـأملى لا تقدم لنـا سـوى الموقـف التـأملى مـن المادة أو المواد التاريخية من حيث البواعث والنتائج .

---

(1) - Ibid P : 4 .

(2) - Ibid P : 5 .

والصورة الثانية من التاريخ التأملى هى التاريخ البراجماتى Pragmatical History وفيها يتألق العقل تألقاً ملحوظاً وفى هذه الصورة أيضاً يلتزم الباحث دراسة الماضى ، وتكون المادة التاريخية هى الأرض الثابتة التى يتحرك فوقها ، ففيها يعمل عقله فيها ، ويجهد ذهنه فى علاج هذا الماضى ، فيسطع حاضراً عندئذ أمام العقل ناشئاً عن نشاطه الخاص، وكأنه جائزة فاز بها العقل لما بذله من جهد . وهنا يمتد هيجل بتجلياته الرائعة فى دراسته لهذا النوع البراجماتى من التاريخ التأملى ، فيقرر أن الأحداث على كثرتها وتنوعها تترابط فيما بينهما فى فكرة تشيع فيها جميعا ـ مضمونها العميق ، وذلك كفيل بأن يخرج الحادثة من دائرة الماضى ويجعلها حاضرة بالقوة . إذ التأملات الخالصة على الرغم من أنها بطبيعتها كذلك فهى بحق تنتمى إلى الحاضر وهى تبعث فى الماضى الميت حاضراً حياً . وثمة نقطة يتعين الإشارة إليها وهى أن روح الكاتب يمكنها أن تجعل هذه التأملات الخالصة مثيرة حقا وباعثة للحياة فى الأحداث بالفعل .[1] وهنا أيضاً نلاحظ أن هذه الصورة الثانية "التاريخ البراجماتى" لا تزيد عن كونها مجرد تأملات لربط الماضى بالحاضر حتى كأن الماضى حىّ فى الحاضر .

والصورة الثالثة من التاريخ التأملى ويسميها هيجل بالتاريخ النقدى Critical وهذه الطريقة فى نظر هيجل لا تعرض علينا التاريخ نفسه لذا فربما كان من الأصوب أن نسميها تاريخ التاريخ History of History لأنها نقد للروايات التاريخية ، ودراسة لحقيقتها ، ومعقوليتها . والسمة المميزة له من حيث ما هو كائن وما ينبغى أن يكون ، تكمن فى حدة الذهن التى يتمتع بها الكاتب والتى تمكنه من أن ينتزع من الوثائق أشياء ليست موجودة فى المادة المدونة .[2] إن هذه الطريقة النقدية من التاريخ بالرغم

---

(1)- Ibid PP : 5 – 6 .

(2) Ibid P : 7 .

من أنها تعتمد على سعة الأفق العقلى للمؤرخ إلا أن المادة التاريخية هى الأساس الذى يشيد عليه عمله .

وأخيراً فإن الصورة الرابعة من التاريخ التأملى كما يرى هيجل تكشف بداية عن طابعها الجزئى ، فهى تتخذ لنفسها موقفاً نظرياً ، لكنها مع ذلك تشكل مرحلة انتقال إلى التاريخ الفلسفى للعالم مادام يأخذ بوجهة نظر عامة [كما هى الحال - مثلا - فى تاريخ الفن وتاريخ الدين] . ولقد نما هذا الشكل من تاريخ الأفكار وتطور فى وقتنا وأصبح أعظم شهرة .[1] إن تاريخ الأفكار يحتل الحد الفاصل بين التاريخ والفلسفة ، ويشارك فى غايتهما معا . فهو يزودنا "بقيم" من الماضى لكى يفحصها الحاضر ، وإنه أيضا يلقى ضوءاً على "العلل" التاريخية، والحقيقة أن الاثنين ، القيم والعلل يكمل كل منهما الآخر ، فالأولى تساعد على معرفة الأفكار والمثل التى استهوت الأجيال الماضية ، أما الثانية فتوضح كيف حصل الناس عليها، وكيف أثرت فى حضارتهم . فتاريخ الأفكار يهتم بأصل التاريخ History Origin وصحة الأفكار The Validity Of ideas معا .[2] إذن فهذا الشكل الأخير من التاريخ التأملى فى نظر هيجل يعتبر مرحلة انتقال إلى التاريخ الفلسفى ويشارك فى غاية كل من التاريخ والفلسفة على السواء .

ثالثاً التاريخ الفلسفى :

ويقودنا هيجل بعد ذلك إلى النوع الثالث من التاريخ وهو التاريخ الفلسفى ، فالتعريف الأكثر عمومية الذى يمكن أن يقدمه هيجل هو أن فلسفة التاريخ لا تعنى شيء سوى التفكير المتعمق فى التاريخ . فالفكر أساس البشرية ، حقا ، إنه هو الذى يميزنا عن الوحوش . والفكر عنصر ثابت يكمن فى الإحساس ، والتعرف والتعقل . وفى غرائزنا واختياراتنا بقدر ما

---

(1) Ibid PP : 7 – 8 .

(2) Baumer Franklin L. Modern European thought – Macmillan – London – 1977 P : 10

تكون بشرية حقا . [1] ففلسفة التاريخ عند هيجل إذن تختلف تماماً عن التاريخ الأصلي والتاريخ التأملي ، فاهتمامها الأساسي ينصب على العقل وامعان النظر فى التاريخ . إن هذا التاريخ الفلسفى كما يصوره هيجل سيكون هو التاريخ العام للبشرية . [2] إن هذه النظرة الهيجلية إلى التاريخ تعبر عن أهمية العقل وقدرته الفائقة فى التاريخ ودوره الفعال فيه .

ويذهب هيجل إلى أن التصور البسيط "للعقل" هو الفكرة الوحيدة التى تقدمها الفلسفة إلى تأمل التاريخ ، وأن العقل هو الذى يسيطر على العالم ، وعلى هذا فإن تاريخ العالم يطلعنا على عمليات عاقلة . هذا الاعتقاد والحدس هو فرض فى مجال التاريخ فحسب . بينما هو فى الفلسفة ليس فرضاً . وإن المعرفة التأملية تؤكد أن العقل هو جوهر ، بالإضافة إلى أنه قوة لامتناهية ، وأن مادته اللامتناهية التى توجد وراء كل حياة طبيعية وروحية تولدها، هى أيضا ، الشكل اللامتناهى - التى تشيع الحركة فى هذه المادة . فمن ناحية يكون العقل هو جوهر الكون الذى تكتسب كل حقيقة وجودها وبقاءها فى الوجود منه وفيه . ومن ناحية أخرى فهو القوة اللامتناهية فى الكون . فى حين أن العقل ليس من الضعف بحيث يعجز عن إنتاج أى شىء ماعدا مجرد مثل ، ومجرد مقصد ، يقع خارج الواقع . ويقرر هيجل أنه المركب اللامتناهى للأشياء ، وأنه ماهيتها وحقيقتها الكاملة . وبينما يتمثل فى كونه الشرط الوحيد لوجوده الخاص ، وهدفه النهائى المطلق ، فإنه أيضا القوة الفعالة المحققة لهذا الهدف ، وتطويره ، ليس فقط فى الظواهر الطبيعية ، وإنما أيضا فى ظواهر الكون الروحى - تاريخ العالم . وإنه ليس ثم شىء آخر فى هذا العالم يتكشف سوى هذه الفكرة أو العقل وشرفه ومجده [3] ويقودنا هيجل بعد هذا إلى البحث فى نقطتين ترتبطان بالاعتقاد الشائع بأن العقل قد

---

(1) Hegel – the philosophy of History PP : 8 -9.

(2) كولنجود ــ فكرة التاريخ ــ ترجمة محمد بكير خليل ــ لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٨ ص ٢١١

(3)- Hegel the Philosophy of History PP : 9 – 10 .

حكم العالم ومازال يتحكم فيه ومن ثم فإنه يحكم تاريخ العالم. فأولى هاتين النقطتين تتمثل فى أن القوانين الطبيعية الثابتة هى العقل ، من حيث هو كامن فى الظواهر . وثانية النقطتين هى التى تقرر أن العقل يوجه العالم ، فهى صورة الحقيقة الدينية ، القائلة أن العالم ليس متروكاً للمصادفة وللعلل العرضية الخارجية ، وإنما تتحكم فيه عناية إلهية . [1] ونخلص من هذا كله إلى أن التاريخ الحقيقى عند هيجل هو تاريخ عقلانى ، يسوده العقل ، وهذه النظرة العقلانية إلى التاريخ عند هيجل تختلف بكل تأكيد عن تصور المؤرخين المحترفين إلى التاريخ .

إن نتيجة ما يحدث وهى النتيجة التى استخلصها هيجل وسعى إليها خلال رحلته الطويلة حول تاريخ العالم تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن تطور تاريخ العالم كان عبارة عن عملية عقلية . وأن البحث فى التاريخ يؤلف المسار العقلى الضرورى لروح العالم - أى الروح التى تكون طبيعتها واحدة دائما ، وأن يكن يكشف عن هذه الطبيعة الواحدة فى ظواهر وجود العالم ، ولابد أن يتجلى ذلك ، بوصفه النتيجة الحقيقية للتاريخ . [2] وفى نفس الموضع يقول هيجل "ولكن لزاماً علينا أن نأخذ التاريخ كما هو. وينبغى علينا أن نسير تاريخياً - أمبريقياً . وينبغى علينا أن نحتاط بصفة خاصة من أن يضللنا المؤرخون المحترفون . [3] ويصور لنا ولترستيس موقف هيجل بكل دقة على نحو رائع ، فيذهب إلى أن هيجل يعتقد أن التاريخ الكلى للعالم ليس نهباً للمصادفة العمياء . فمساره تتحكم فيه الفكرة أى القول بالعقل ، فالتاريخ هو التكشف الذاتى - Self manifestation التقدمى للفكرة فى الزمان . وهذا ما يطلق عليه اللاهوتيون ، "التصميم المقدس للعالم"

---

(1)- Ibid PP : 11 – 13 .

(2)- Ibid P : 10 .

(3)- Ibid P : 10 .

"the divine governance of the world" وإن هيجل يحاول شرح هذه الفكرة بالتفصيل فى تمثيلاته لتطور الفلسفة ، من فن ودين وتاريخ سياسى.[1]

والكلمة التى نود ذكرها هنا هى أن نظرية هيجل فى التاريخ ترتد إلى الفكر الغيبى أكثر من الفكر العقلانى وإن كان يؤكد دائما بأن العقل يحكم العالم وأن أحداث التاريخ تتحكم فيها الروح المطلقة . وقد صنف برلين هيجل ضمن أنصار فكرة الحضارة فى التاريخ وهم الذين يعتقدون أن بمقدورهم الكشف عن حركة الجماعات البشرية على نطاق واسع عبر كل العصور . والذين يعتقدون حسب تعبير برلين فى وجود شخصية سامية Super Personal أو ما وراء الشخصية Trams Personal تربط الأفراد بعضهم ببعض . وفى إطار هذه النظرة لا يزيد الأفراد عن كونهم شخصيات مجردة ، لا قيمة لهم ، إلا كمكونات للروح الجماعية للحضارة . إن هذه الحضارة لها روح مميزة فهى تملى على الأفراد ما ينبغى أن يتبعوه من عقائد وقيم وهى التى تفرض فعلها عليهم .

فى مثل هذا التصور الذى يعتمد على الفكر الغيبى أكثر من اعتماده على الفكر العقلانى ، تختفى قيمة الأحداث الفردية ويتحول التاريخ إلى theodicy أى إلى تاريخ له طابع لاهوتى . وتتصور الحضارة على أنها كائن حىّ وروحى ، لها تكوين عضوى خاص بها ، بصرف النظر سواء وجد الأفراد أم لم يوجدوا . فهى تحيا وتزدهر ، وتصل إلى النهاية ثم تتداعى وتذبل وتفنى ، وفقا لنظام سام لا يعمله إلا الله . [2] .

---

[1]- Stace – W . T . the philosophy of Hegel – New York - 1955 - P : 133 .

[1] ولترستيس – فلسفة هيجل – ترجمة إمام عبد الفتاح إمام – دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٨٠ ص ١٩١-١٩٢

[2]- Berlin Isaiah , Four essays on Liberty, PP : 45 – 47 .

نظرية هيجل فى التاريخ

أولا : المنهج الجدلى :

قسم هيجل التاريخ على أساس الجدل إلى ثلاث حقب رئيسية وهى : الحقبة الشرقية ، والحقبة الإغريقية الرومانية ، والحقبة الحديثة أو الألمانية. ففى الأولى ، الروح تستغرق جاهلة وغير واعية بتلك الحرية التى هى ماهيتها الحقيقية وخاضعة فى جلد للاستبداد المدنى والروحى ، ومن ثم لا يوجد إلا واحد فقط هو الحر ، وحقوق الأفراد تكون غير معروفة وفى الثانية تستيقظ الروح فى البعض لهذه الحقوق ، ولكن ليس بكل صورها. أى شعور جزئى بطبيعتها الحقيقية ، فالبعض وليس الكل ، هم أحرار . وفى الثالثة ، الروح تعرف ذاتها كما هى بوصفها روح حرة فى أساسها ، وتعرف أن الكل له حقوق طبيعية فى الحرية العقلية . [1] يقول هيجل "إن الشرق لم يعرف ، وحتى يومنا سوى أن واحداً فقط هو الحر ، وأن العالم الإغريقى والرومانى ، عرف أن البعض أحرار ، وأن العالم الجرمانى ،عرف أن الجميع أحرار". [2] فالتاريخ فى نظر هيجل ليس إلا عرضا للحرية ، والحرية عند الشرق حرية عقلية أو مجرد فكرة نظرية . وعند الإغريق والرومان كانت أكثر قربا من الواقع بينما فى العالم الجرمانى قد وصلت إلى مرحلة التشخص العينى . وعلى هذا النحو يقوم التاريخ على أساس المنهج الجدلى ثلاثى الحدود فيه يتم الانتقال من الموضوع إلى نقيضه إلى ما يؤلف بينهما فى مركب يصون ما هو ثمين فى الحدين المتعارضين ، وهذا المركب فى التاريخ هو العالم الجرمانى .

وبما أن التحليل يطلعنا على النمط العام لنظرية هيجل فى التاريخ ، فإن التقدم ذاته يأتى كنتيجة للصراع والتوفيق . فالحركة أو الفكرة ـ الموضوع لا تتوقف . حتى يظهر ضدها ـ النقيض . وخارج عملية التعارض

---

(1)- Barrnes Harry Elemer A History of Historical Writing New York – 1963 – P : 196 .

(2)- Hegel the Philosophy of History P : 104 .

ينشأ مركب جديد ثم يصبح المركب موضوعا آخر وهكذا تستمر العملية . [١] فالمنهج الجدلى منهج تحليلى وتأليفى فى جميع خطواته . والفكر كما حدده هيجل جدلى الطابع ، إنه يسير من إيجاب إلى سلب إلى تأليف بينهما . [٢] فكل فكرة فى التاريخ وفى العقل الإنسانى عند هيجل تحيا وتتطور إنما تتضمن تناقضا بين طرفين متعارضين . فهى من جهة تحمل فى طياتها مبدأ لتأكيدها وإبقائها على ذاتها وهذا ما يسمى "بالنظرية" ومن جهة أخرى تحمل أيضا مبدأ لنفيها وهذا ما يسمى "بالنظرية المناقضة" يثير فيها أزمة باطنية لنفيها مما يجعلها تحدد ذاتها أكثر فأكثر وتحقق ماهيتها على نحو أقوى . [٣] فالتاريخ الكلى للعالم كما يبتدى لهيجل لا يتحقق إلا فى إطار جدلى يقوم على التناقض وبفضل هذا التناقض يتم الانتقال من حقبة تاريخية إلى أخرى تلزم عنها ومن هنا يتحقق التقدم فى التاريخ .

وعودة مرة أخرى إلى الحرية بوصفها ماهية الروح الحقيقية يقول هيجل "إن التاريخ الكلى ـ كما ثبت بالفعل ـ يكشف عن تطور الشعور بالحرية من قبل الروح ، وما ينشأ عنه من تحقق لتلك الحرية . فهذا التطور يتضمن تدرجات ـ سلسلة تامة ومتزايدة من التعبيرات أو التجليات للحرية التى تنشأ عن فكرتها" . [٤] وعلى هذا النحو حدد هيجل الحرية من حيث تطورها من خلال تصوره للتاريخ الكلى ، الحرية بوصفها فكرة وبوصفها تحقق عينى أى بوصفها وجود بالقوة وبوصفها وجودا بالفعل ، إنه يشتق وجود الحرية من مجرد فكرة الحرية أو تصورها ، فهو يلغى بذلك كل انفصال بين الفكر

---

[١] Barrnes Harry Elemer A History of Historical P : 196 .

[٢] دكتور إمام عبد الفتاح إمام ـ المنهج الجدلى عند هيجل ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٦٩ ـ ص٢٥ ـ ٢٧ .

[٣] دكتور محمد ثابت الفندى ـ أصول المنطق الرياضى ـ دار المعرفة الجامعية ١٩٨٧ ص٨٤ .

[٤] Hegel the Philosophy of History P : 63 .

والواقع . وعلى هذا الأساس لا تكون الحرية العينية المشخصة غريبة عن فكرتها .

وعلى صعيد الطبيعة المنطقية أو الجدلية للفكرة عامة يقرر هيجل أن الفكرة تتحدد بذاتها - أى أنها تفترض أشكالاً متتابعة تتجاوزها تباعاً ، وعن طريق تجاوز مراحلها السابقة هذه تكتسب الفكرة شكلاً إيجابياً ، أشد ثراءً وأكثر تشخصا فى الواقع - هذه ضرورة فى طبيعتها وسلسلة ضرورية للأشكال الخالصة المجردة التى تفترضها الفكرة تباعا - فالجزء المنطقى يكشف عن هذا . وهنا نحتاج إلى أن نتخذ نتيجة واحدة فحسب من نتائجه . ويعنى بها هيجل كل خطوة فى عملية السير ، من حيث أنها تختلف عن غيرها ، إذ لها مبدؤها الجزئى المحدد . [1] وعلى هذا النحو ينظر هيجل إلى كل مرحلة من مراحل تطور التاريخ على أنها تختلف عن المرحلة السابقة عليها كما تختلف فى الوقت نفسه عن المرحلة اللاحقة فلكل مرحلة من هذه المراحل طابعها المميز والفريد .

إن الصورة التى رسمها هيجل للتاريخ الكلى للعالم إنما تعبر بكل تأكيد عن حركة الجدل ، فقد رأى أن الدول ترتبط بعضها ببعض فى المجتمع المدنى Civil Society شأنها شأن الأشخاص فيه ، ففى المجتمع المدنى يمثل الأشخاص اللحظة الجزئية وينشدون غاياتهم الجزئية ، Particular endsويريدون احتياجاتهم . ومن ثم الدول فى علاقتها بعضها ببعض فهى جزئية وكل واحدة منها تنشد مصالحها الخاصة . وكل دولة تجسد طوراً جزئياً للفكرة الكلية . ففى التاريخ تكشف الفكرة أطوارها المتنوعة من الزمان ، والطور السائد فى أى حقبة يجسده شعب معين وهذه الأطوار المتعاقبة تشكل تاريخ العالم . وهكذا حينما تتجسد الفكرة فى تاريخ العالم فإنها عندئذ تكون هى روح العالم . World-spirit إنها الروح لأن الروح تعنى بكل بساطة التجسد المشخص للفكرة .

---

(1) Ibid P : 63 .

the concrete embodiment of the Idea[1] نظريـــة هيجـــل فـــى التاريخ ليست إلا تأملاً مفرطاً فى أحداث الماضى ، وهذا هو شأن التفكير فـى القرن التاسع عشر . وعلـى هذا نجد أنـه قد ابتدأ بفكرة ميتافيزيقيـة وهـى الروح وحاول أن يكيف التاريخ كله لـها . لقد تخيل هيجل تـاريخ الكـون كأحداث متتابعة نما وتقدم بواسطتها ذلك المبدأ الأول الذى لم يكن فى البدايـة واعياً بذاته حتى أصبـح واعيـاً كل الوعـى بمـا فـى قدرتـه مـن ثـراء عظيـم ، فظـهور الإنســـان وتكويـــن المجتمعـــات وتـــاريخ الشـــعوب والأديـــان والفلسفات... الخ كل ذلك يمثل مراحل متتابعة مـن نمـاء الكل أو الـروح فـى الوعى بذاته ، وما تتابع الأجيال إلا وسائط عـابرة يسير الكل أو الـروح مـن خلالها نحو السيطرة على كل إمكاناته .[2] ومن هنا تعد محاولـة هيجل هذه محاولـة فريدة فـى نوعـها حيث أنـها تســتوعب فـى جوفـها كـل المشـاكل والتصورات الفلسفية .

فالتاريخ هو ــ بمعنى ما من المعانى ــ "مناقشـة" طويلـة تجـرى بيـن البشر ، ولكـن هذه المناقشـة التاريخيـة الواقعيـة تختلـف كـل الاختـلاف عـن المناقشة الفلسفية أو الحوار الجدلى المنطقى . والسبب فى ذلـك أن المناقشـة التاريخية لا تتم عن طريق المقارعة بالحجج اللفظية ، بل هى تتم عن طريـق المقارعة بالسلاح من جهة ، والاستعانة بالآلة من جهة أخرى . وهيجل حين يقتصر على تسجيل ديالكتيك الواقع ، فإنه فى الحقيقة إنما يفيـد مـن الأحداث المتحققة عبر التاريخ ، كما أنه يستخلص النتـائج مـن المناقشـات التـى دارت بين الفلاسفة المتقدمين عليه . ولا شك أن الفكر الهيجلى يعكس هذا الطـابع الجدلى للواقع ، لأنه فكر وصفى تأملى يتماوج مـع ذبذبـات الواقـع ، ويتنـاغم مـع إيقاعـات التـاريخ .[3] وإلـى جـانب هذه الملاحظـة الهامـة ثمـة ملاحظـة

---

(1) Stace – W.T. the Philosophy of Hegel P : 438 .٥٩٦–٥٩٦ انظر الترجمة ص

(2) ــ دكتور محمد ثابت الفندى ــ مع الفيلسوف– دار المعرفة الجامعية –١٩٨٧ص ١٨١

(3) دكتور زكريا إبراهيم ــ عبقريات فلسفية ــ هيجل أو المثالية المطلقة دار مصر للطباعة ١٩٧٠ ص ١٦٩ ــ ١٧٠

أخرى جديرة بالنظر نسوقها هنا وهى أن هيجل فى دراسته للتاريخ انطلق من فكرة مسبقة ومقدمات أولية وهى أن الروح تتحكم فى التاريخ الكلى للعالم وفى هذا إنما تتحرك حركة جدلية ، ثم عمل على حشد الوقائع التاريخية وحوادث الماضى لتأييد هذا الافتراض .

يتطلب البحث فى التاريخ عند هيجل إذن أن نكون على وعى تام بالمنهج الجدلى ثلاثى الحدود ، وأن نكون على دراية تامة به حتى نستطيع أن ندرك حركته فى التاريخ العام . فالجدل يطلق على حركة عقلية تؤدى إلى زوال عزلة الحدين المتعارضين واندماجهما فى وحدة أعلى . فالنفى عند هيجل له أولاً وظيفة ديناميكية هى أن يجبر الفكرة على أن تتقدم وتخرج عن ذاتها وأن تفتح مناظرة مع غيرها وتقيم صراعاً . [1] إن هيجل ابتدأ من تصور الوجود المحض وبيّن أن هذا التصور يؤدى عن طريق الضرورة الجدلية إلى تصورات أخرى أكثر إحكاما وقرباً من الواقع ، وهذه التصورات الأخرى بدورها تظهر عدم التوافق وتتطلب تصورات أخرى إلى أن نصل فى نهاية المطاف إلى الفكرة المطلقة.[2] إن تطور التصور من حيث المنطق كما يرى هيجل قد لا يتمشى مع الأحداث التى تقع فى الزمان أى الأحداث التاريخية . بيد أن تطور التصور منطقيا يفيدنا فى فهم ما تحقق فعلاً فى مجرى التصور التاريخى . [3] تلك كانت لمحة سريعة حول طبيعة الجدل . وسنحاول بعد هذا أن نتعقب المنهج الجدلى فى التاريخ . وإذا كانت الحرية كما وصفها هيجل هى جوهر الروح وماهيتها فينبغى أن نتتبع تطورها كما تتجلى فى التاريخ .

---

(1) ــ دكتور محمد ثابت الفندى ــ اصول المنطق الرياضى ص ٨٤ .

(2) Singer Peter, Hegel Oxford University Press – 1982 p : 80 .

(3) دكتور عبد الرحمن بدوى ــ فلسفة القانون والسياسة عند هيجل ــ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ــ ١٩٩٦ ص ٤٤ .

ثانيا : الجدل وتطور الشعور بالحرية فى التاريخ :

لقد قدم لنا هيجل بشكل رائع ومثير صورة التاريخ الكلى للعالم وقد حدد فيها فكرة الحرية وسعى جاهداً إلى رصد حركتها وتتبعها أيضا حتى تحققها المشخص فى دولة بروسيا فى عصره . فالحرية المشخصة وفقا للعملية الجدلية تشتق من فكرتها . وبعبارة أخرى يشتق هيجل وجود الحرية من مجرد فكرة الحرية . إنه يقول "وهذه هى النتيجة التى ظلت عملية التاريخ العالمى تستهدفها على الدوام ، والتى قدم من أجلها من القرابين ما ظل يوضع دون انقطاع على مذبح الأرض الواسعة طوال الأحقاب التاريخية الطويلة" . [1] فالحرية فى أصلها ونشأتها الأولى ليست إلا حرية عقلية . ووجودها فى هذه الحالة ليس إلا وجوداً غير محدد أى وجوداً خاليا من كل وجود .

فتاريخ الإنسانية كما وصفه هيجل ليس إلا عملية تطور من الحرية الدنيا إلى الحرية العليا ، ومن أشكال الحرية الأدنى توافقا إلى الحرية فى اكتمالها . وعندما جاءت المسيحية فإن الحرية قد غمرت الناس جميعاً، ولم تفرق بين حاكم أو صفوة ارستقراطية وبين الرعية. ففى المسيحية يعتبر الفرد ذا قيمة لامتناهية . والحرية بهذا المعنى عند هيجل لا تنطبق إلا على العالم الجرمانى فحسب ، ولم تتحقق إلا فيه أيضا . [2] يقول هيجل "إن تاريخ العالم ليس إلا تقدم الشعور بالحرية" [3] فالتاريخ إذن هو عرض لتطور الشعور بالحرية .

والحرية فى ثانى أطوارها كما رسمها هيجل تطور ذاتها من خلال استخدامها لوسائل وأدوات تتمثل فى مجموعة الحاجات والأهواء والمصالح

---

(1)- Hegel – the philosophy of History P:19 .

(2)- Edwards [Paul], the Ency of philosophy, Vol , 3-4, Collier Macmillan, London, 1976 – P P : 446 – 447.

(3) Hegel the Philosophy of History P :19 .

والرغبات وغيرها. [1] وأن ما يوجد من أجل ذاته فقط ، إنه عبارة عن امكانية ، أو قوة ، لم تخرج إلى حيز الوجود . وثمة عنصر ثان لابد من إدخاله لكى توجد الفاعلية - وهو الفعل والتحقيق ، وهذه القوة المحركة هى الإرادة - أى فاعلية الإنسان بأوسع المعانى . وبهذه الفاعلية وحدها فإن الفكرة بالإضافة إلى الخصاص المجردة بصفة عامة يمكن أن تتحقق إذ لا حول لهذه الأخيرة فى ذاتها . فالقوة المحركة التى تدفعها إلى العمل ، وتعطيها وجودا محدداً ، هى حاجة الإنسان وغريزته وميله وعاطفته . [2] فالوسائل هى نفى للحرية العقلية ، إنها الخطوة الثانية فى تطور الشعور بالحرية .

يقول هيجل فى موضوع الوسائل "يوجد عنصران يتصلان بتحقيقنا الأول الفكرة والثانى الأهواء البشرية المعقدة ، أحدهما هو القاعدة (السداة) والآخر لحمة الستار الشاسع للتاريخ الكلى . والمعنى المشخص والموحد لهما هى الحرية تحت الشروط الأخلاقية داخل دولة" . [3] نلاحظ من هذا أن هيجل يهدف إلى اشتقاق الحرية العينية من مجرد فكرتها . وانتقال الحرية من الوجود الكلى الشامل غير المحدد إلى ما ينفيها إنما يتم عبر مقولة الصيرورة .

وليس من شك أن حاجات الأفراد ومصالحهم هى الدافعة إلى كل سلوك تاريخى ، وأن تحقيق الفرد هو الذى ينبغى أن يحدث فى التاريخ . ومع ذلك فهناك شىء آخر يؤكد ذاته - هو العقل التاريخى . فالأفراد يشجعون على تقدم العقل فى سعيهم إلى تحقيق مصالحهم ، أى أنهم يؤدون بذلك مهمة كلية تساعد على تحقيق الحرية . [4] ويخلص هيجل من هذا البحث إلى التأكيد

---

(1) Ibid P : 20

(2) Ibid P : 22 .

(3) Ibid P : 23 .

(4) ــ هربرت ماركيوز ــ العقل والثورة ــ هيجل النظرية الاجتماعية ــ ترجمة دكتور فؤاد زكريا ــ الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٩ ص ٢١٨ .

على مسألتين أساسيتين : الأول فكرة الحرية كهدف مطلق ونهائى ، الثانية وسائل تحقيقها أعنى الجانب الذاتى للمعرفة والإرادة ، بما فيها من حيوية وحركة ونشاط . وتأتى الدولة بعد ذلك بوصفها الكلى الأخلاقى والحقيقية الواقعية للحرية ، وبالتالى بوصفها الوحدة الموضوعية لهذين العنصرين.[1] وإن الدولة هى التحقيق الفعلى الواقعى للروح الأخلاقية . وإن إرادة الإنسان إنما تتحقق فى الدولة وبالدولة . وفى الدولة تصبح هذه الإرادة واعية بذاتها، شاعرة بحريتها الخلاقة الجوهرية ، متوجهة نحو غاياتها [2] تلك هى رحلة الحرية كما وصفها هيجل .

ويبتدى الجدل فى جوف التاريخ فى عرض هيجل لمسألة الحرية فيقرر أن الشرقيين لم يصلوا إلى معرفة أن الروح - الإنسان بما هو كذلك - حرة ، ولأنهم لا يعرفون هذا فإنهم ليسوا أحراراً . أنهم لا يعرفون فقط سوى أن شخصا بالذات حر . بيد أن حرية هذا الشخص تكون ، لهذا السبب عينه ، مجرد نزوة وبربرية ، واندفاع وحشى للانفعال ، أو اعتدال وكبح للرغبات ، هو ذاته فقط حادث من حوادث الطبيعة - مجرد نزوة شأنه شأن سابقة - لهذا فإن ذلك الشخص يكون فقط طاغية ، وليس إنساناً حراً . فالشعور بالحرية قد ظهر أول مرة بين اليونانيين ، وعلى ذلك كانوا أحراراً ، ولكن شأنهم شأن الرومان ، إذ إنهم عرفوا أن البعض فقط هم الأحرار - لا الإنسان بما هو كذلك . حتى إن أفلاطون وأرسطو لم يعرفا هذا . ولذلك كان لدى اليونان رقيق ، فكانت حياتهم بأكملها والاحتفاظ بحريتهم الرائعة مرتبطين بنظام الرق : الحقيقة التى أدت فضلا عن ذلك إلى جعل تلك الحرية من جهة نمواً عرضياً عابراً محدوداً فحسب ، ومن جهة أخرى شكلت فيها عبودية صارمة فى طبيعتنا المشتركة - فيما هو إنسانى . وكانت الأمم الجرمانية تحت تأثير المسيحية أول أمة وصلت إلى الشعور بأن الإنسان ، بما هو إنسان ، حر : وإلى أن حرية الروح هى التى تشكل جوهرها . فهذا الشعور استيقظ

---

(1) - Hegel the Philosophy of History P : 48 .

(2) ــ دكتور عبد الرحمن ــ فلسفة القانون والسياسى ص ١٦٠ .

أول مرة فى الدين ، وهو أكثر المجالات روحانية . [1] إن هيجل قد أعد مخططا كبيرا لتاريخ العالم يقوم أساسا على ثلاث محاور رئيسية وهى العالم الشرقى والعالم اليونانى والرومانى والعالم الجرمانى . والملاحظ هنا أن الثلاثية التى تميز الجدل عنده تبدو واضحة فى كتاباته التاريخية كما هو الحال فى كتاباته الأخرى .

وخلاصة هذا أن الحرية تشتق فى أول أطوارها من فكرة وجود الحرية ، الخالية من كل وجود ، وهى فى هذه الحالة ليست إلا فكرة نظرية مجردة غير محددة . فالحرية تتضمن مبدأ لتأكيدها وإبقائها على ذاتها وتتضمن أيضا مبدأ لسلبها يثير فيها نزاعا داخليا ومعارضا لنقيضها . وهذا المبدأ المناقض لفكرة الحرية هو مجموعة الأهواء والاحتياجات والانفعالات البشرية التى أطلق عليها اسم الوسائل . فالسلب فى حدود المنطق يضطر فكرة الحرية إلى أن تحدد ذاتها وتحقق ماهيتها ، وللسلب أيضا وظيفة ديناميكية هى أن يضطر فكرة الحرية إلى أن تتقدم وتتجاوز ذاتها ، وأن تفتح مناظرة مع غيرها وتقيم نزاعا . فالحرية تبدأ من فكرة الوجود من حيث هو وجود نظرى عام ، وهذه هى المقولة الأولى ، لكن هذه الفكرة بما تتضمنه من شمول تتضمن مقولة أخرى هى العدم الذى يتمثل فى الحشد الهائل من الحاجات والانفعالات والأهواء البشرية ، وتثيرها كنقيض لها يسلبها سلبا قاطعا وتتنازع معها. وهما يتنازعان كما هو معروف فى الفكر وفى الواقع نزاعا مستمرا بحيث ينتقل الفكر والواقع من الوجود إلى العدم إلى الوجود مرة أخرى ، وهذا التحول ذاته هو المقولة الثالثة التى تمزجهما معا فى حد أعلى هو فكرة الصيرورة وهكذا تستمر الحركة إلى أن تنتهى إلى مقولة أكثر واقعية وقربا من التشخص الفردى وهى الوعى بالحرية وهذا لا يتحقق إلا داخل الدولة .

---

(1) Hegel the Philosophy of History P : 18 .

ثالثاً : مقولة التغير

ونشير الآن بشئ من التفصيل إلى مقولة التغير باعتبارها المقولة الثالثة فى الجدل ، ولما لها من أهمية فى التاريخ يقول هيجل إن " المقولة أو الفكرة الأساسية التى يقوم عليها التاريخ وترتبط به هى فكرة التغير change" [1] لقد درس هيجل القوانين التى تحكم الحوادث فى التاريخ ولقد اكتشف أيضاً أن كل عملية صيرورة تتقدم تقدماً طبيعياً ، وأن هذا التقدم يحقق ذاته فى وقوع سلسلة متصلة من المتناقضات تنتهى دائماً إلى التوفيق.[2] وإن المنهج الجدلى الهيجلى عبارة عن منطق جديد هو منطق الحركة والتغير والتطور فى مقابل المنطق الأرسطى القديم الذى كان يعبر عن السكون والاستقرار والماهيات الثابتة . [3] ومن هنا فإن العملية التاريخية فى أساسها عملية منطقية ، تقوم على أساس فكرة التغير .

إن فلسفة هيجل توصف بأنها فلسفة تغير. وإن التاريخ عنده يعنى التطور ، وكل عملية تاريخية هى شئ جديد تحت الشمس ، ولا يوجد شئ أبداً يتماثل تماماً مع أى شئ قبله . وينبغى على أى قانون حقيقى للتغير التاريخى أن يدركه ، لا بوصفه تعاقباً لدورات أزلية متواترة من التغير وإنما بوصفه تطوراً تقدمياً تعد كل مرحلة أو " لحظة " فيه [حسب تعبير هيجل] نتيجة تلزم عن سالفتها ومختلفة أساساً عنها . وأن كل تغير عنده ، يعتبر تغيراً تاريخياً ، وأن التاريخ ذاته بوصفه جدلياً فإنه يتجلى فى الزمان . وهكذا ، فإنه حركة هائلة أشبه برقصة الفالس ، فى انتقاله ، من القضية إلى نفيها إلى المركب ، بحيث تظل تمثل كل خطوة مرحلة أعلى فى التطور الذاتى للمطلق . وكل لحظة تاريخية فى نفيها لسابقتها " تقتبس " فى نفس الوقت ما هو ثمين فيها ، وتحتفظ به بوصفه جانباً من واقع اجتماعى أكثر ثراءً

---

(1) Ibid P: 72

(2) Schweitzer – Civilization and Ethics, the philosophy of civilization translated by C.T Campion –1929 PP : 191-192 .

(3) دكتور إمام عبد الفتاح إمام – مقالة بعنوان المنهج الجدلى عند هيجل – نشر ضمن جزء خاص عن الفكر العصرى – هيجل – دار الهلال ١٩٦٨ ص ١٢٥ .

وشمولاً . والتاريخ عند هيجل عملية ديالكتيكية وروحية فى آن واحد . وهكذا يتصوره بوصفه الإنتشار الجدلى أو التطور الذاتى لما هو غير مشروط تماماً. أعنى المطلق ذاته . وهذا يعنى ، أن التغير التاريخى الأكثر تشخصاً ينبغى أن يقرأ بوصفه نضالاً متواصلاً تجاه الحرية الروحية للبشرية . وكل مرحلة فى هذه العملية هى بالنسبة لما مضى ، مرحلة "أعلى" وبالنسبة لما يليها ، فانها أيضاً مرحلة " أدنى " [1]. فالتاريخ فى أساسه وفى طبيعته الجوهرية إنما يخضع لمقوله أو فكرة التغير ، ومن ثم فكل تغير عند هيجل إنما هو تغير تاريخى . والتاريخ على ضوء مقولة التغير إنما يتسم بالانتقال والتحول والاستمرار والاتصال . فهو عبارة عن حقب متعاقبة فى الزمان .

يعتقد هيجل أن كل فترة فى التاريخ فى كل حضارة أو أمة لها طابع خاص بها بوصفها مرحلة من مراحل التطور تابعة لما قبلها وسابقة لما بعدها . فمثل هذا التطور وفقاً لهيجل ، يصدر عن قوانين عقلية أو روحية فى أساسها . وأن الحضارة أو الأمة لها نوعية من الشخصية خاصة بها ، ويمكن تفسير تطورها بالرجوع إلى طابعها الخاص فأخذ هيجل التشخيص وطبقه على العالم بأسره . إنه ماثل بين الكل الواقعى الذى سماه "بالمطلق" أو العالم ذاته ، أو الله [هذه بالطبع وحدة الوجود غير أن هذا بالأحرى التصور المسيحى لله] وتفسير التاريخ البشرى بأسره بوصفه التحقق الذاتى التقدمى لروح المطلق هذه . و"تحقيق الذات" بهذه الدرجة يرى على أنه التقدم الروحى الجوهرى الكامن خلف التاريخ كله . إنه التغلب على ما أسماه هيجل "الاغتراب" ، الذى يوزان فيه بين معرفة الشخص الذاتية وأى شخص آخر أو الانسلاخ عن ذاته [الموضوعية] . فالتميز بين الذاتية والموضوعية بطريقة ما يمكن أن يكون ممزوجاً فى عملية من الروح تحقق ذاتها فى

---

[1] Aiken Henry D. the Age of ideology, the new American library PP: 67-77

هنرى د . أيكن – عصر الأيدلوجية – ترجمة دكتور فؤاد زكريا – مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٣ ص ٩١-٩٢ .

العالم.[1] وخلاصة هذا أن كل مرحلة من مراحل التطور تختلف إختلافاً شديداً عن سابقتها كما تختلف أيضاً عن المرحلة التى تليها . فمقوله التغير وهى أساس التاريخ بصفة عامة تقوم على أساس النفى المزدوج فكل مرحلة من مراحل تطور التاريخ تنفى ما قبلها وهى فى نفس الوقت نفى لما بعدها وهكذا . وعملية النفى هذه هى أساس الجدل عند هيجل . وتلك نتيجة من نتائج عرضه المنطقى أو الجدلى .

إن مقولة التغير فى أساسها تعنى الجديد ، والطبيعة لا تأتى بجديد والجديد لا يتحقق إلا فى عالم الروح . ويقول هيجل "إن أى شئ جديد لا ينطلق إلا من هذه المتغيرات التى تحتل مكاناً فى منطقة الروح" [2]

"only in those changes which take place in the region of spirit does anything new arise"

فكل فترة تاريخية وفقاً لمقولة التغير هى شئ جديد وفريد فى أساسه .

إن هيجل لم يكن لديه تصور رومانتيكى واضح عن الطبيعة . والتاريخ عنده لن يكون استاتيكياً على الإطلاق ، ويتميز بالتغير ، وبالحياة الدائمة ، وبالتقدم نحو الكمال ، وفضلاً عن ذلك فإن طبيعة التاريخ تظل "غير مقيدة " عند هيجل وأن الروح تتجلى أيضاً بذاتها تاريخياً فى الجزئى ، أعنى فى روح الشعب . Volksgeist[3] فالرومانتيكية بصفة عامة عند هيجل تركز على جانب التغير فى العقل نفسه والحركة الدائمة فى تصوراته الأساسية أو مقولاته حيث تتعارض ثم تلتقى فى تصورات أعلى فأعلى على أساس النفى فى إطار جدل ثلاثى الحدود .

---

[1] Stevenson , Leslie seven theories of human nature New York and Oxford, 1973 PP:46-47 .

[2] Hege the philosophy of History P: 54 .

[3] Baumer – franklin – L. modern European Thought P: 299.

الحركة الجدلية للحرية الموضوعية والحرية الذاتية فى التاريخ

بحثنا حتى الآن نظرية هيجل فى التاريخ وسنحاول بعد هذا مناقشة البعد الإمبريقى لهذه النظرية مركزين فيه على بيان كيف تسير أحداث التاريخ كلها بمقتضى منطق جدلى ثلاثى الحدود . والنقطة الرئيسية فى هذه الرحلة هى الصراع بين الحرية الموضوعية والحرية الذاتية الذى ينتهى عند هيجل بالتأليف والتوفيق بينهما .

إن الحرية فى التاريخ عند هيجل تتجلى بوصفها ، حرية موضوعية من جهة وبوصفها ذاتية من جهة أخرى . وعنده لا بد من التفرقة بين الحرية الجوهرية [الموضوعية] وبين الحرية الذاتية . فالحرية الجوهرية هى العقل المجرد غير المتطور المتضمن فى الإرادة ، والذى ينتقل لكى يطور ذاته فى الدولة . ولكن العقل من هذه الوجهة لا يزال فى حاجة إلى البصيرة والإرادة الشخصية ، أى الحرية الذاتية ، والتى لا تتحقق إلا فى الفرد فقط ، والتى تشكل تأمل الفرد فى ضميره الذاتى [1] وتاريخ العالم كما يصفه هيجل ليس إلا تطور فكرة الحرية – ولكن الحرية الحقيقة – تتطلب خضوع الإرادة العرضية المجردة – لأن هذه الإرادة فى طبيعتها صورية . وإذا ما كانت الإرادة الموضوعية عقلية فى ذاتها ، فلابد للنظرة الإنسانية والحكم الإنسانى أن يتطابق مع العقل الذى تتضمنه وعندئذ سنكون قد أدركنا العنصر الجوهرى الآخر أيضاً أى الحرية الذاتية . [2] بيد أن الانسجام والتوافق عند هيجل بين الحرية الجوهرية والحرية الفردية لا يتحقق إلا فى العالم الجرمانى.

تعبر هذه الأفكار كلهاعن نزعة هيجل القومية ، إنه سعى جاهداً إلى صياغة هذه النزعة فى سياق جدلى . وسنرى أن كيركجا رد أبا الوجودية عارض هذه الفلسفة ، فهو يقرر أنه بالرغم من الشوط الذى قطعه هيجل فى

---

(1) Hegel the philosophy of history P: 104 .

(2) Ibid P : 456

بيان العمليات الجدلية وبما تتضمنه من صراع وألم وحتى العذاب الدائم فإنه انتهى إلى اللامتناهى مفترضاً أن النهاية المباشرة تكون قد بلغت منتهاها فى دولة بروسيا فى عصره . [1] فهدف هيجل إذن هو العالم الجرمانى أو بعبارة أخرى شيخوخة التاريخ وهى عنده قوته لا ضعفه ، إزدهاره لا انحداره .

وتحت عنوان تصنيف المعطيات التاريخية classification of historical data استهل هيجل حديثه بالثناء على أوربا وتقدير عظمتها ، وفى هذا تعبير عن نزعته العنصرية وانحيازه للأمم الجرمانية والمبالغة فى الإشادة بتاريخها وبخس لدور الأمم الأخرى وحقها فى التاريخ وكانت الصورة التى رسمها معبرة عن تلك النزعة القومية . ولننصرف الآن إلى مناقشة العصور التاريخية كما حددها هيجل .

أولاً الحقبة الشرقية :

يقرر هيجل أنه لا حرية على الإطلاق فى العالم الشرقى ولا يوجد سوى الاستبداد والطغيان. فالشرق لم يعرف سوى أن واحداً فقط هو الحر . ويمثل الشعور غير المستنير – الموضوع الجوهرى أو الوجود الروحى – أساس هذا الشكل الذى ترتبط به الإرادة الذاتية فى البداية بعلاقة الإيمان والثقة والطاعة . ويرى هيجل فى الحياة السياسية للشرق حرية عقلية متحققة ، تطور ذاتها دون أن تصل إلى حرية موضوعية وهذه هى طفولة التاريخ فى نظره . وهنا تكمن كل عناصر الدولة بأكملها – حتى الذاتية – لكنها لا تأتلف بعد مع الوجود الجوهرى العظيم لأنه خارج حدود القوة الواحدة التى لا يستطيع شئ أن يحتفظ لذاته بوجود مستقل عنها – لا يوجد إلا نزوة شاردة تندفع ، كما تشاء ، خارج حدود القوة المركزية ، بلا غرض أو جدوى . [2] نلاحظ أن الدولة بمعناها الحقيقى فى العالم الشرقى لا وجود لها وكل ما يوجد فقط هو الوجود الجوهرى . والذى يستوعب فى داخله

---

(1) Tomlin E.W.F – the great philosophers the western word skeffington and son LTD – 1958 P : 247 .

(2) Hegel the philosophy of History P : 105 .

الإرادة الذاتية لكن الإرادة الموضوعية ليس لها وجود على الاطلاق فى هذه الحقبة . والموقف الذى يقفه هيجل بخصوص العالم الشرقى يتمثل فى أنه لا وجود إلا للحرية العقلية فحسب .

ولما كان هذا الشكل من الجوهرية كما يؤكد هيجل لا يستوعب فى ذاته نقيضه ويعلو عليه ، فإنه ينقسم مباشرة إلى عنصرين . فمن جانب نرى الدوام والثبات – إمبراطوريات تنتمى إلى المكان المجرد ، باعتباره متميزاً عن الزمان – وتاريخاً لا تاريخيا – ومثال ذلك ، الصين ، تلك الدولة التى تأسست على علاقة الأسرة - أى الحكومة الأبوية التى تحفظ التنظيم بعنايتها الرشيدة ، ونصائحها ، وبالجزاء أو بالأحرى توجيه الضربات الصارمة امبراطورية مبتذلة لأن نقيض الصورة أى اللامتناهى أو المثالية لم يؤكد ذاته بعد ، وصورة الزمان فى الجانب الآخر تقف فى مقابل هذا الاستقرار المكانى . فالدول موضع البحث لا يطرأ عليها فى ذاتها أى تغير ، أو فى مبدأ وجودها ، إن موقفها يتغير تجاه بعضها البعض باستمرار . فهى فى صراع لا يتوقف يعود عليها بدمار سريع وفى هذه العلاقات المتصارعة يدخل مبدأ الفردية المضاد لكنه هو ذاته يظل حتى الآن مجرد كلية طبيعية غير واعية - إنه الضوء الذى لم يكن يعد ضوء النفس الشخصية . فهذا التاريخ أيضا [أى تاريخ الكفاح سالف الذكر] هو على الجانب الأكبر واقع غير تاريخى لأنه ليس إلا تكراراً لنفس الدمار المهيب . العنصر الجديد ، الذى يشبه الشجاعة، والبسالة ، والشهامة ويحل محل الخيلاء الاستبدادية السابقة ، يمر عبر نفس الدائرة من الانحراف والدمار . ولذلك فإن هذا الانهيار ليس انهياراً حقيقياً ، ولا يتحقق أى تقدم خلال هذا التغير المتواصل . فالتاريخ عند هذا الحد ينتقل - وبصورة خارجية فحسب - أى بغير ارتباط بالشكل السابق - إلى أواسط آسيا . وبمواصلة المقارنة بتغيرات الإنسان الفردى ، فإن هذا لابد أن يكون الصبا فى التاريخ ، فلا يعبر عن الاستراخاء والارتكان

عند الطفل ، وإنما هو حافل بالشجار والعراك . [1] ماذا اكتشف هيجل إذن فى الحقبة الشرقية ؟ لقد اكتشف أن أهم ما يتسم به الشرق هو انتشار الرق وعدم وجود الحرية . ومن هنا فالعالم الشرقى يفتقر إلى الحرية الذاتية أو الفكر المستقل الذى يميز الحقبة الحديثة أو العالم الجرمانى .

ثانيا : الحقبة اليونانية والرومانية .

١ - الحقبة اليونانية :

ثمة حركة جدلية هائلة فى فلسفة التاريخ تهيمن على تاريخ العالم منذ العالم الإغريقى وإلى اليوم . فكان الإغريق مجتمعا قائما على الأخلاق المعتادة ، ومجتمعاً متوافقاً يوحد فيه المواطنون ذواتهم بالمجموع ولا يفكرون فى الاعتراض عليه . والصورة الجماعية المعتادة هذه تمثل نقطة الانطلاق فى الحركة الجدلية ، وهى تعرف اصطلاحا بالموضوع . [2] لاحظ هيجل أن ذاتية الإرادة لم تكن قد استيقظت بعد داخل الوحدة الطبيعية لدولة المدينة اليونانية فى عهدها المبكر . فعدم وجود ذاتية واعية كان هو الشرط الذى جعل الديمقراطية تسير فى طريقها دون أن يعترضها شئ وكان من الممكن أن توكل مصلحة المجتمع "إلى إرادة المواطنين وتصميمهم" لأن هؤلاء المواطنين لم تكن لديهم بعد إرادة مستقلة تستطيع فى أى وقت أن تنقلب على المجتمع . [3] يقول هيجل "إن المواطنين لايزالون غير واعين بالمصلحة الخاصة ، ومن ثم العنصر الفاسد : أى أن الإرادة الموضوعية فى حالتهم لم تكن قد تقلصت . فأثينا المعبودة هى أثينا ذاتها - أى الروح الواقعية والمشخصة للمواطنين فالألوهة لن تتوقف عن إلهام حياتهم وسلوكهم ، إلا حينما تنسحب الإرادة إلى داخل ذاتها - أى إلى نقاء الإدراك والضمير - وتضع التصميم المطلق بين الذاتى والموضوعى . فالأسمى هو

---

(1) Ibid P : 105 – 106 .

(2) Singer – Peter – Hegel PP : 77 – 78 .

(3) هربرت ماركيوز ــ العقل والثورة ــ هيجل النظرية الاجتماعية ص ٢٢٧ ــ ٢٢٨ .

الوضع الحقيقى للنظام الديمقراطى" . [1] وعلى هذا ليس ثمة إرادة ذاتية أو فكر مستقل فى دولة المدينة الإغريقية فى عهدها المبكر.

ويقرر هيجل أن إرادة الأعضاء الفرديين لاتزال هى الإرادة الموضوعية فحسب - أى لا أحد منهم يريد هذا أو ذاك وليست الإرادة الخيرة المجردة . لأن الإرادة الخيرة هى شىء جزئى - أى أنها ترتكز على أخلاق الفرد ، وعلى حكمهم وشعورهم الذاتى . تلك هى الحرية الذاتية الخالصة التى تشكل ذلك المبدأ أو تحدد الشكل الجزئى للحرية فى عالمنا - أى يشكل الأساس المطلق فى حياتنا السياسية والدينية . بيد أنه لا يمكن أن يتجلى بذاته فى العالم اليونانى إلا بوصفه عنصراً هداماً فكانت الذاتية عبارة عن درجة وليست درجة كبيرة فى التقدم الذى احتلته الروح اليونانية . [2] فموضوع الجدل أو حده الأول فى حالة العالم اليونانى إنما يتمثل فى عدم وجود ذاتية . والفكر المستقل فى هذا العالم يصبح على هذا النحو عنصراً هداماً . وهو الذى أدى إلى انهيار الحضارة اليونانية .

وتعرض المرحلة التالية لهذا الموضوع ذاتها على أنها غير ملائمة أو متنافرة. فعدم الانسجام هذا فى حالة مجتمع اليونان القديم ، يظهر عبر جدل سقراط . فاليونان ليس فى استطاعتهم أن يعملوا بغير فكر مستقل ، لكن المفكر المستقل هو العدو القاتل للأخلاق المعتادة ، وهكذا ينهار المجتمع القائم على العادة فى مواجهة مبدأ الفكر المستقل . والآن يأتى دور هذا المبدأ فى التطور الذى يحدث فى ظل المسيحية . فالإصلاح يعيد قبول الحق المقدس للضمير الفردى . وقد ضاع انسجام المجتمع الإغريقى . بيد أن الحرية هى المنتصرة . هذه هى المرحلة الثانية فى الحركة الجدلية . إنها الضد أو النفى للمرحلة الأولى ومن ثم تعرف بأنها النقيض.[3] .

---

(1) Hegel the Philosophy of History P : 252 .

(2) Ibid PP : 252 – 253 .

(3) Singer – Peter – Hegel P : 78 .

والتحول الحاسم الذى اكتشفه هيجل فى تاريخ اليونان القدماء هو الإتجاه نحو الذاتية . فهذا التحول عنده إنما يمثل نقيض الموضوع فى الجدل أو حده الثانى . فمبدأ الذاتية هذا أى الاستقلال الطبيعى المطلق للفكر قد بلغ عند سقراط مستوى التعبير الحر . فاعتقد سقراط أن على الإنسان أن يكتشف ويدرك بذاته ما هو حق وخير ، وأن هذا الحق والخير هو كلى فى طبيعته . فسقراط اشتهر كمعلم للأخلاق ، ولكن هيجل يطلق عليه أكثر من هذا ، إنه مكتشف الأخلاق . فلدى اليونان أخلاق معتادة . ولكن سقراط أخذ يعلمهم الفضائل والواجبات الأخلاقية . . . الخ فليس الإنسان الأخلاقى هو الإنسان الذى يريد ويفعل ما هو حق فحسب - أى ليس إنسانا برينا (ساذجا) فحسب - ولكن هو الذى يكون لديه الوعى بما يفعل . ويعلن هيجل أن سقراط قد اتخذ الفرد بوصفه قادراً على إصدار حكم أخلاقى نهائى ، حول البدعة فى الأمة وفى الأخلاق الاعتيادية ، وهكذا جعل من نفسه كاهناً بالمعنى اليونانى. إنه هو الذى قال إن لديه صوتا خفياً داخل ذاته يعظه بما يفعل ، ويبدى له ما هو نافع لأصدقائه . فكانت نهضة عالم الباطن للذاتية انقلاباً على واقعية الموجود . وبالرغم من استمرار سقراط ذاته فى أداء واجباته كمواطن ، فلم تكن توجد الدولة ودينها ، ولكن عالم الفكر كان ملاذه الحقيقى . [1] ونخلص من هذا كله إلى أن الفكر المستقل الذى حمل سقراط رايته كان هو العامل الأساسى الذى أدى إلى انهيار المجتمع اليونانى .

وفى موضع آخر من فلسفة التاريخ وتحديداً فى مقدمة هذا الكتاب يوجز هيجل طبيعة العالم اليونانى فيقرر أنه توجد فرديات تشكل ذاتها ، وفى مقارنة يثبت فيها هيجل أن الأخلاق كانت مبدأ عند الإغريق شأنها فى ذلك شأن الأخلاق فى آسيا ، بيد أن الأخلاقية عند الإغريق تقوم على الفردية ، ومن ثم تدل على الإرادة الحرة للأفراد ، فهنا ، إذن، توجد وحدة بين الأخلاق والإرادة الذاتية ، أو مملكة الحرية الجميلة ، لأن الفكرة تكون قد اتحدت

---

(1) Hegel the Philosophy of History – PP : 269 – 270 .

بشكل طبيعي . فلا ينظر إليها بعد بصورة مجردة ، وإنما ترتبط فوراً بالواقعي ، فالإرادة الفردية للذات تتبنى بغير تعقل السلوك والعادات التي تفرضها عليها العدالة والقوانين ولهذا فإن الفرد يكون في وحدة غير واعية مع الفكرة - أي الصالح الاجتماعي وهنا يتقابل مع ما كان منقسماً في الشرق إلى طرفين - أي الجوهري بما هو كذلك ، والفردية التي يستوعبها في داخله - لكن هذين المبدأين المتميزين في نظر هيجل لا يتحدان إلا بطريقة مباشرة فحسب ، ومن ثم يشتملان على أقصى درجة من التناقض . لأن هذه الأخلاقية الجمالية لم تشق طريقها بعد عبر صراع الحرية الذاتية ، في مولدها الثاني ، أو معموديتها ، إنها لم تتطهر بعد بحيث تصل إلى مستوى الذاتية الحرة التي هي ماهية الأخلاقية الحقيقية . [1] هذا هو موقف هيجل من العالم اليوناني القديم . في هذا العالم ثمة اختلافات واضحة بينه وبين العالم الشرقي ، ففي هذا الأخير لا وجود للحرية ، إذ الحرية فيه حرية عقلية فحسب . أما العالم اليوناني فإنه يشهد بميلاد الحرية ، ولكن هذه الحرية ليست حرية مطلقة يتحقق فيها الانسجام بين الإرادة الذاتية الحرة وبين الإرادة الموضوعية ، فهذا الانسجام والتوافق لا يتحقق إلا في الحقبة الحديثة.

٢ - الحقبة الرومانية :

والصورة العامة التي يرسمها هيجل للفترة الثالثة من عمر التاريخ ، [مرحلة الرجولة] والتي تمثلها المملكة الرومانية توضح أن الحرية الموضوعية وكذلك أيضاً الحرية الذاتية لم تتحقق بعد . ويقرر هيجل أن هذه الفترة تتسم بأنها كلية مجردة [التي تستوعب فيها الغاية الاجتماعية الأهداف الفردية بأثرها] . ومن ثم تبدأ الدولة في أن يكون لها وجود مجرد ، وفي إنماء ذاتها من أجل هدف محدد ، وهو الهدف الذي يشارك أعضاؤها في اتمامه حقا ، لكنه ليس هدفاً كاملاً ومشخصاً . فالأفراد الأحرار يضحي بهم

---

[1] Ibid PP : 105 – 106 .

فى سبيل تحقيق المطالب القاسية للأهداف القومية ، التى لابد أن يستسلموا لخدمة التعميم المجرد . وهنا يظهر الاستبداد . وترتد الروح إلى ذاتها فى المرء باحثة عن الانسجام فى داخلها . وهكذا يحدث التعارض بين الذاتية الروحية وبين المملكة الدنيوية . [1]

يعلن هيجل أن الدولة الرومانية تقوم على دستور سياسى ونظام قانونى يشتمل على الحق الفردى بوصفه واحداً من أهم معتقداتها الأساسية . وهكذا تدرك الدولة الرومانية حرية الفرد على نحو لم تستطع أن تدركه بها الإمبراطورية الفارسية أبداً، وإن المكسب بطبيعة الحال هو أن هذا التعرف على الحرية الفردية هو مجرد مادة شرعية وصورية - ويطلق عليها هيجل "الحرية الخالصة للفرد" . وتلك الحرية الحقيقية يطور فيها الأفراد دائما مختلف الأفكار وسبل المعيشة - "الفردية المشخصة" بلغة هيجل - تحطمها بلا هوادة القوة الوحشية لروما . فانتشار الفلسفة الأبيقورية والرواقية والشكية إنما نشأت نتيجة للتعاسة التى يشعر بها الفرد ، الذى يرى أنه حر ، أمام القوة المتسلطة التى لا يمكنه التأثير فيها . ويعلن هيجل أن الرجوع الى الفلسفة يكون استجابة سلبية لهذا الموقف، إنها حيلة من اليأس فى وجه العالم العدائي ، وقد كانت ثمة حاجة الى حل أكثر واقعية ، وقد قدمت المسيحية ذلك الحل . [2] تعرض المرحلة الثانية إذن ذاتها أيضا على أنها غير ملائمة . والحرية تؤخذ لذاتها ، وتتوقف أيضا عن أن تصلح كأساس للمجتمع لكونها مجردة وعقيمة . ولكن فى ممارسة مبدأ الحرية تباعا فى الثورة الفرنسية المقلقة . نستطيع إذن أن نرى أن كلاً من ذلك الانسجام المعتاد والحرية المجردة للفرد يعتبران متحيزين . فلابد أن يصلا معا إلى درجة الاتحاد بالطريقة التى تحفظهما ، وتجنبهما مختلف صور التحيز . [3]

---

(1) Ibid PP : 107 – 108 .

(2) Singer Peter – Hegel PP : 15 – 17 .

(3) Ibid P : 78 .

إن دراسة هيجل للتاريخ وحشده للوقائع إنما يهدف من ورائها إلى إثبات أن الروح التى تحكم التاريخ الكلى للعالم تسير بطريقة جدلية .

وبمزيد من الإيضاح عن طبيعة العالم الرومانى يذكر هيجل أن نابليون - فى حوار أجراه ذات مرة مع جوته حول طبيعة التراجيديا عبر فيه عن الرأى القائل بأن شكلها الحديث يختلف عن شكلها القديم ، فمن خلالنا فإننا لم نعد نعرف القدر الذى يخضع له الرجال بصورة مطلقة ، فتلك السياسة تحتل مكانا فيما قدر قديما . [La Politique est la Fatalité] لهذا فإنه اعتقد أن هذه ينبغى أن تستخدم كشكل حديث للقدر فى التراجيديا - لا تقاوم قوة الظروف التى يمكن أن تلوى الفردية . ومثل هذه القوة هى العالم الرومانى ، لقد اختيرت بغرض مزج الوحدات الأخلاقية فى أزواج مترابطة ، وباعتبارها أيضاً توحيداً لكل الآلهة وجميع الأرواح تحت سيادة بانستينية شاملة ، لكى تتم بها القوة الكلية الخالصة . فالتمييز بين المبدأ الرومانى والمبدأ الفارسى هو هذا بالضبط - أى أن الأول يخنق كل حيوية ، بينما الآخر يعترف بوجودها بالدرجة الكافية . فمن خلال وجودها فإن هدف الدولة، أعنى أن الوحدات الاجتماعية فى حياتها الأخلاقية يجب ان تضحى فى سبيله ، فالعالم يغوص فى بحر من السوداوية : وقلبه ممزق إنه كل مع الجانب الطبيعى للروح التى قد استغرقت فى الشعور التعس . فمن هذا الشعور فقط يرتفع ما وراء الحس ، الروح الحر فى المسيحية .

رأى هيجل فى المبدأ اليونانى الوجود الروحى فى انتعاشه - بهجته ومتعته : وأكد أن الروح لم تكن قد ارتدت بعد إلى المجرد ، إنها لاتزال متضمنة فى العنصر الطبيعى - خصوصية الأفراد - التى تعتبر أن فضائل الأفراد أنفسهم تصبح أعمالاً أخلاقية للفن . وإن الشخصية الكلية الخالصة لم تكن قد ظهرت بعد لأن الروح يجب أن تطور نفسها أولاً إلى ذلك الشكل من الكلية الخالصة التى تفرض نظاماً صارماً على الإنسانية الآن بعيداً عن كل اعتبار . إننا نجد هنا فى روما إذن أن الكلية الحرة، تلك الحرية المجردة تضع الدولة المجردة، والدستور السياسى والقوة فوق الفردية المشخصة من

جهة ، ومن جهة أخرى تخلق الشخصية فى مقابل تلك الكلية - الحرية الفطرية للذات الخالصة ، التى ينبغى أن تتميز عن الخاصية الفردية . لأن الشخصية تؤلف الشرط الأساسى للحق الشرعى : إنها تتجلى بالتحديد فى المقولة الخاصة ، ولكنها غير متحيزة للخصائص العينية للروح الحية التى تعنى بها الفردية . فهذان العنصران اللذان يؤلفان روما - الكلية السياسية من جهة ، والحرية المجردة للفرد من جهة أخرى - يتجليان للوهلة الأولى فى صورة الذاتية . وهذه الذاتية - هذا الارتداد إلى الذات الذى لاحظه هيجل بوصفه الروح اليونانية الفاسدة - يصبح فى روما الأساس الذى ينطلق منه الجانب الجديد لتاريخ العالم . وإذا أخذنا بعين الاعتبار العالم الرومانى ، فإننا يجب ألا نعمل عينياً مع الحياة الروحية الغنية فى ذاتها ، لكن عنصر العالم التاريخى يتضمن تجريداً للكلية ، والغاية الصارمة التى تتبع بلا حيوية وبلا نشاط ليست إلا سيادة مجردة ، لكى تعزز ذلك التجريد .

إن الديمقراطية عند اليونان كما يرى هيجل كانت هى الشرط الأساسى للحياة السياسية ، شأنها شأن الاستبداد فى الشرق ، ولدينا هنا الأرستقراطية ذات النظام الصارم فى حالة معارضة للناس . وكانت الديمقراطية أيضاً عند اليونان ممزقة إربًا، ولكن فقط على غرار الأحزاب ، إنها فى روما تلك المبادئ التى تحفظ المجتمع برمته من انقسام الدولة - فهى تقف موقفا عدائياً تجاه البعض وتناضل مع البعض الآخر : فأولاً الأرستقراطية مع الملوك ، ثم عامة روما مع الأرستقراطية ، حتى تحقق الديمقراطية سيادتها ؛ إذن تنطلق أولاً الأحزاب التى نشأت فيها الأرستقراطية المسيطرة على الأفراد والمستعبدة للعالم . إن هذه هى الثنائية التى تكلم عن أعمق وجودها معلمو روما بصورة مطابقة . [1] وخلاصة هذا كله أن العالم الرومانى يختلف تماماً عن العالم اليونانى ، فالروح الفاسدة فى العالم اليونانى التى تمثلت فى شخص سقراط أصبحت هذه الروح فى العالم الرومانى الأساسى الذى انطلق

---

[1] Hegel the Philosophy of History PP : 278 – 279 .

منه ذلك الجانب الجديد من تاريخ العالم . ولن نسترسل إلى أبعد من هذا فى الحديث عن العالم الرومانى .

ثالثاً العالم الجرمانى :

وعند هذه النقطة نكون قد وصلنا إلى العصر الحديث وسنحاول فيه أن نتعرف على العملية الجدلية فى حدها الثالث أو المركب الذى يوفق فيه هيجل بين الانسجام المعتاد والحرية المجردة للفرد . يقول هيجل " لقد وصلنا إلى المرحلة الثالثة للعالم الجرمانى ، وهكذا نكون قد وصلنا إلى فترة وعى الروح بحريتها لأنها تريد الحقيقة والأبدية أى التى تكون كلية فى ذاتها ولذاتها" . [1] فالعصر الحديث يتميز إذن بوعى الروح بحريته . ففى فلسفة التاريخ ، يكون المركب فى الحركة الجدلية ككل هو المجتمع الجرمانى فى عصر هيجل الذى رآه منسجماً لأنه مجتمع عضوى ، وعلاوة على ذلك فإنه يحافظ على الحرية الفردية لأنها حرية عضوية على نحو عقلى . [2] فمسار تاريخ العالم إذن يتحرك حركة جدلية ثلاثية الحدود يتمثل موضوعها فى ذلك المجتمع القائم على العادة ، ونقيضها يتمثل فى الفكر المستقل الذى يقوم فى مواجهة هذا المجتمع . أما المركب فى العملية الجدلية فإنه يتمثل فى التوفيق بين الانسجام المعتاد والحرية المجردة للفرد ، وهذا لا يتحقق فى نظر هيجل إلا فى المجتمع الجرمانى .

فعندما ظهر مبدأ الذاتية لأول مرة على يد سقراط ، لم يكن من الممكن صبغه بصبغة عينية، وجعله أساساً للدولة والمجتمع . بل إن البداية الحقيقية لهذا المبدأ كانت فى عهد المسيحية ، وبذلك فإنه ظهر لأول مرة فى " العقيدة " ولقد كانت حركة الإصلاح الدينى فى ألمانيا تعد أول محاولة ناجحة لإدخال مبدأ الذاتية فى العلاقات الاجتماعية والسياسية المتغيرة فقد

---

(1) Ibid P : 412 .

(2) Singer Peter – Hegel P : 78 .

أدت الحركة إلى جعل الذات الحرة وحدها مسئولة عن أفعالها ، وتحدت نظام السلطة والامتيازات التقليدية باسم الحرية والمحبة والمساواة الإنسانية . [1]

ويرى هيجل أن الفرد حينما يعرف أنه ملىء بالروح السامية ، فإن كل العلاقات التى انطلقت من ذلك العنصر الفاسد تكون فى حد ذاتها ملغاة ومن ثم لم يعد يوجد تمييز بين القديسين والعامة ، ولم نعد نجد طبقة من الطبقات تستحوذ على جوهر الحقيقة ، وبالمثل لم تعد تستأثر بكل الكنوز الروحية والزمنية فى الكنيسة . ولكن القلب - وهو الجانب العاطفى من طبيعة الإنسان الروحية - يدرك أنه ذلك الذى يمكنه بل وينبغى أن يستحوذ على الحقيقة . وأن هذه الذاتية هى الملكية المشاعة لكل البشرية . وعلى كل فرد أن يحقق عمل المصالحة فى روحه الخاصة . - وعلى الروح الذاتية أن تقبل روح الحقيقة فى داخل ذاتها ، وأن تعطيها مكاناً ضئيلاً هناك . وهكذا تكون كل من الروح المطلقة الباطنة التى تخص الدين ذاته ، والحرية فى الكنيسة آمنة . ومن ثم فإن الذاتية تمثل المضمون الموضوعى للمسيحية ، أى مذهب الكنيسة الخاص بها . وفى الكنيسة اللوثرية ينظر إلى الشعور الذاتى وحكم الأفراد على أنهما متساويان بالضرورة مع الجانب الموضوعى للحقيقة. فالحقيقة عند اللوثريين ليست شيئا نهائياً وتاماً . أى أن ذاتية اللوثريين ينبغى أن تكون محفوفة بالحقيقة ، وتسليم وجودهم الجزئى بدلاً من الحقيقة الجوهرية ، وجعل تلك الحقيقة هى خاصتهم . وهكذا تظفر الروح الذاتية بالتحرير فى الحقيقة ، فتتنكر لجزئيتها وتسترد ذاتها فى إدراك لحقيقة وجودها . وهكذا تكون الحرية المسيحية قد تحققت بالفعل . ولو وضعت الذاتية فى الشعور فحسب ، بدون ذلك الجانب الموضوعى ، لتكونت لدينا وجهة نظر للإرادة الطبيعية فحسب . [2]

---

[1] ماركيوز ــ العقل والثورة هيجل ــ ترجمة دكتور فؤاد زكريا ص ٢٣٠ .

[2] Hegel the Philosophy of History P : 416 .

قد يبدو غريبا أن يتحدث هيجل عن فترة تاريخية كاملة منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية وإلى العصور الحديثة بوصفها "العالم الجرمانى" . إنه يرسم صورة مظلمة لأوربا أثناء الألف عام التى مرت بعد سقوط روما . ومنذ ذلك العصر أصبحت الكنيسة ، فى نظره مفسدة لروح الحقيقة الدينية ، فأقحمت نفسها بين الإنسان والعالم الروحى ، مطالبة أتباعها بالطاعة العمياء. وبعبارات هيجل تكون العصور الوسطى عبارة عن " ليل طويل مظلم ومضطرب" الليل الذى انتهى بالنهضة . فالإصلاح وليست النهضة هو الذى وصفه هيجل بأنه "الضوء الكلى للشمس" للنهار المشرق ، إنه عصرنا الحديث .

فالإصلاح قد نشأ نتيجة لفساد الكنيسة ، ولم يكن الفساد فى نظر هيجل نمواً عرضياً ولكن نتيجة ضرورية للحقيقة القائلة بأن الكنيسة لم تعالج مشكلة الألوهة بوصفها شيئا روحيا خالصاً ، ولكن بدلاً من ذلك جسدتها فى العالم المادى . فالشعائر والطقوس الرسمية والأشكال الأخرى الظاهرية هى أساسها . والإذعان لها هو ما يؤخذ كأساس للحياة الدينية . وهكذا تقيد العنصر الروحى فى الكائنات البشرية بموضوعات مادية بحتة ، وإن التعبير الأساسى لهذا الفساد الراسخ هو الممارسة الخداعة لتلك الأهداف الأكثر دنيوية ، والمالية ، وأى شىء يخص طبيعة الإنسان الأكثر عمقاً وإيغالا - أى أن السلام الروحى يتحقق بالخلاص من الخطايا. وبالطبع يشير هيجل إلى ممارسة "الغفرانات" المزيفة التى انطلق منها البرتستو اللوثرى .

ويرى هيجل أن الإصلاح بوصفه إنجازاً عظيماً للشعب الجرمانى ، نشأ من "الحقيقة الأمينة والبراءة فى قلبه" . "فالبراءة" و "القلب" هما بالنسبة لهيجل أفكار الإصلاح ، والتى بدأها لوثر الراهب الجرمانى البسيط ، فلم يتخذ لها أصلاً سوى الأمم الجرمانية . وكان من نتيجتها التخلص من الأبهة وحالة

الكنيسة الكاثوليكية الرومانية وأن يحل محلها الفكرة القائلة بأن كل كائن بشرى فردى لديه فى قلبه علاقة روحية مباشرة بالمسيح . [1]

فالعالم الجرمانى إذن يمثل المرحلة الرابعة من عمر التاريخ أو هى شيخوخته ، إنها لا تعنى فى نظر هيجل الضعف والوهن وإنما هى عنده تعبر عن القوة والازدهار . إن هذا الشكل يبدأ من الوفاق الذى قدمته المسيحية ، لكنه ليس إلا بذرة فحسب بغير تطور قومى أو سياسى . ولهذا فإن هيجل يعتبره كبداية تنطلق بالأحرى من التعارض الهائل بين المبدأ الروحى والدينى، وبين عالم الواقع البربرى . لأن الروح باعتبارها الشعور بعالم جوانى تظل هى ذاتها فى البداية صورة مجردة . وبالتالى فإن ما هو زمانى ينحدر إلى الجهالة والعنف الطائش . ويؤكد هيجل أن المبدأ المحمدى - مبدأ التنوير فى العالم الشرقى - هو أول مبدأ يتصدى لهذه البربرية وهذه النزوة . ويقرر هيجل كذلك أن هذا المبدأ قد طور ذاته بعد ذلك وبطريقة أسرع من المسيحية ، لأن هذه الأخيرة فى نظره احتاجت إلى ثمانية قرون لكى تنمو وتصل إلى شكل سياسى . ويرى هيجل أن مبدأ العالم الجرمانى لم يصل إلى الواقع المشخص إلا فى تاريخ الأمم الجرمانية . وهنا كذلك يتمثل التعارض بين المبدأ الروحى الذى يبعث الحياة فى الدولة الأكليركية ، وبين البربرية الوحشية الفظة فى دولة الزمان وينبغى على المبدأ الزمانى أن يأتلف مع المبدأ الروحى ، ولكن هيجل لم يجد فى الواقع شيئاً من ذلك الاعتراف بهذا الوجوب. فلابد للقوة الزمنية التى تخلت عنها الروح أن تتلاشى أولاً أمام القوة الأكليركية [بوصفها ممثلة للروح] لكنها كلما انحدرت هذه الأخيرة ذاتها إلى الزمنية المجردة ، فقدت أثرها بضياع طابعها المميز ورسالتها . ويعلن هيجل أنه نتيجة لهذا الفساد للعنصر الأكليركى أى الكنيسة - تنتج الصورة العليا للفكر العقلى . وحين تعود الروح إلى ذاتها تنتج عملها فى إطار عقلى ، وتصبح قادرة على تحقيق المثل العقلى من المبدأ الزمانى

---

[1] Singer Peter – Hegel P : 18 – 19

وحده. وهكذا حدث بفضل عناصر الكلية التى تتخذ مبدأ الروح أساسا لها أن أقيمت إمبراطورية الفكر بصورة فعلية ومشخصة . ويختفى التعارض بين الكنيسة والدولة ويصبح الروحى مرتبطاً بالزمانى ، وينمو هذا الأخير باعتباره وجوداً مستقلاً . ولم تعد الدولة تحتل مكاناً أدنى من الكنيسة ولا خاضعاً لها . إن هذه الأخيرة لم تعد لها أية ميزة تحتفظ بها ، ولم يعد الروحى عنصراً غريباً عن الدولة . فالحرية قد وجدت كما يرى هيجل وسائل تحقيق مثلها أعنى وجودها الحقيقى . وهذه هى النتيجة الحقيقية التى يعمل التاريخ حقاً على إنجازها . [1] هذه هى شيخوخة التاريخ ، قوته لا ضعفه ، ازدهاره لا انحداره وتدهوره . إن هذه المبالغة والإشادة بالعالم الجرمانى ليست إلا تعبيراً عن نزعة هيجل القومية كما ذكرنا من قبل .

توقفت هنا إذن مسيرة التاريخ ، وتوقفت الصراعات الطويلة والثورات الحروب المدمرة ، ومعها أيضاً توقف الجدل ، وأفضت الروح مضمونها الكلى العميق فى دولة بروسيا . يقول هيجل " هذه هى النقطة التى وصل اليها الوعى ، وهذه هى الأطوار الرئيسية لتلك الصورة التى أدرج مبدأ الحرية ذاته فيها" . (٢) تعد صيغة هيجل للإنتاج من المبدأ الدينى " تحت شكل العقل الانسانى والحرية الدنيوية " غير خاصة به . إنه مبدأ مشترك فى كل فلسفات التاريخ فى عصر التنوير . وما يميز هيجل عن أسلافه وعن أخلافه الراديكاليين هو أنه كبح النظرة المتفائلة للتنوير بتأويل التعاليم اللاهوتية مرة أخرى وفقاً لما أنجزه العصر بالفعل . والهدف الذى اخترعه للمبدأ العقلى فى التقدم ليس ثورياً وإنما محافظاً وبالنسبة له ، فإن التقدم يتجه نحو الإتقان النهائى واستكمال للمبدأ المؤسس لمسار التاريخ بأسره . والتقدم عند العقليين المثاليين فى القرن السابع عشر والثامن عشر هو تقدم غير محدد يتجه باطراد نحو المعقولية وشيئاً فشيئاً نحو الحرية وشيئاً فشيئاً

---

(1) Hegel the Philosophy of History PP : 109 – 110 .

(2) Ibid P : 456

نحو السعادة ، لأن الزمان لم يكتمل بعد .[1] ونخلص من هذا إلى أن نظرة هيجل إلى التقدم تختلف بكل تأكيد عن نظرة العقلين ، فالتقدم عند هؤلاء غير محدود ، ولابد من توافر عدة عناصر لكى يحقق التقدم هدفة وهى :

المعقولية ، الحرية ، السعادة وثمة ملاحظة على جانب كبير من الصواب نسوقها هنا عابرين وهى أن الفلسفة النظرية ترتكز أساسا على الاستنباط لا الاستقراء . وبتفكيرنظرى مجرد تطمح الى معرفة كيف تطور العالم الحقيقى من فكرة الوجود ، ولهذا فهى فلسفة تصورية ترتدى ثوب المنطق . وفى حالة هيجل فإننا نرى أنه يسلك أيضا سبيل الاستنباط ، إنه يزعم فى فلسفة التاريخ أنه يسير فيها أمبريقيا ، وبالرغم من الحشد الهائل من الوقائع والحوداث التاريخية التى أوردها فى مؤلفه فلسفة التاريخ فإننا نرى أنه انطلق من تصورات أولية ومقدمات فلسفية ، لا يؤيدها التاريخ إن التاريخ فى نظره هو تاريخ روحى منظم يقوم على أساس الجدل .

والنقطة التى نود ذكرها هنا فى إطار هذا كله هى أن نظرية هيجل فى التاريخ وكذلك النظريات المشابهة قد تعرضت لانتقادات شتى من جانب المؤرخين ، فهؤلاء قد وضعوا قواعد محددة للبحث عن اسباب وعلل الحوادث العامة كارتفاع امة وسقوطها ، وظهور حضارة ونموها وازدهارها وهبوطها أو زوالها وكذلك البحث عن الحوادث الخاصة مثل كسب معركة أو اكتشاف طريق [2] لا يعنى هذا إنحياز للمؤرخين أو الاتفاق معهم وإنما التأكيد على أن دراسة هيجل للتاريخ لا تنطلق إلا من أفكار ميتافيزيقية . فإذا كان المؤرخون قد وضعوا قواعد محددة لتفسير عوامل قيام أمة ما أو سقوطها ، فإن هيجل وضع منذ البداية افتراضاً مؤداه أن الروح تحكم تاريخ

---

(1) Lowith karl – meaning in history – Chicago press –1947 - P: 60

(2) دكتور حسن عثمان – منهج البحث التاريخى – دار المعارف – الطبعة الرابعة ١٩٦٤ ص ١٨٥ .

العالم ولا شئ فى هذا التاريخ الكلى للعالم يمكن تفسيره إلا من خلال الروح . ولهذا قدم هيجل من الوقائع التاريخية ما يدعم افتراضه .

وأخيراً يقودنا البحث إلى العلاقة بين الماركسية وهيجل وإن التصورات الفلسفية للماركسية فى جانب منها قد اشتقت من هيجل ، وبصورة واضحة تصوره للجدل ، والقائل بأن العناصر المتضاربة المتصارعة داخل المجتمع تأخذ فى اعتبارها التغير والتقدم فوجهة نظر الماركسى للتقدم البشرى تقوم على ما نسميه غالباً " النظرة المادية للتاريخ" نظر ماركس الى الكائنات البشرية على أنها كائنات اجتماعية فى اساسها تتحكم فيها المراحل الجزئية للتطور الاقتصادى والاجتماعى ، فقيم الافراد واتجاهاتهم هى عبارة عن نتاج للطبقة الاقتصادية التى ينتمى إليها الفرد بينما الطبقة ذاتها تحددها العلاقات المختلفة داخل المجتمع بوسائل الانتاج [1] هذا عن الواقع الذى بلغته فلسفة هيجل عند ماركس . ولما كانت هذه الدراسة تدور حول التاريخ الكلى للعالم عند هيجل فليس لنا أن نتوسع فى الحديث عن الماركسية أكثر من هذا ولكن ما أردنا ذكره هنا هو أن الماركسية قد استفادت من المنهج الجدلى عند هيجل بعد تعديله وجعلته أساساً لفلسفتها المادية .

---

[1] Ball Alan R . Modern Politics – and Government – Third Edition Macmillan London and Basingstoke – 1983 P: 244

نتائـــج البحـــث

في ضوء الهدف الذي تركز حوله هذا البحث وهو كيف أخضع هيجل التاريخ للجدل وكيف تحقق الروح مضمونها تاريخياً في إطار جدلي . فقـــد انتهت هذه الدراسة إلى النتائج الآتية :

أولاً : إن مسيرة التاريخ الكلى للعالم تنطلق تحديداً من الشرق إلى الغرب ، كالشمس في حركتها اليومية من مشرق الدنيا إلى مغربها [والتشـــبيه مـــن هيجل] فالحرية وهى جوهر الروح ، وماهيتها الثابتة هي أساس التـــاريخ . والتاريخ الكلى للعالم هو تاريخ روحي منظم تسير أحداثه كلـــها بمقتضـــى منطق جدلي ثلاثي الحدود . فالحرية تشتق في أول أطوارها من فكرة وجود الحرية ، الخالية من كل وجود ، وهى في هذه الحالة ليست إلا فكرة نظريـــة مجردة غير محددة . إنها تتضمن مبدأ لتأكيدها وإيقائها على ذاتها وتتضمن أيضاً مبدأ لسلبها يثير فيها نزاعاً داخلياً ومعارضاً لنقيضها . وهـــذا المبـــدأ المناقض لفكرة الحرية هو مجموعة الأهـــواء والاحتياجـــات والانفعـــالات البشرية التي أطلق عليها اسم الوسائل . فالسلب في حدود المنطق يضطـــر فكرة الحرية إلى أن تحدد ذاتها وتحقق ماهيتها ، وللســـلب أيضـــاً وظيفـــة ديناميكية هي أن يضطر فكرة الحرية إلى أن تتقدم وتتجـــاوز ذاتـــها ، وأن تفتح مناظرة مع غيرها وتقيم نزاعاً . فالحرية تبدأ من فكرة الوجـــود مـــن حيث هو وجود نظري عام ، وهـــذه هي المقولة الأولى ، لكن هذه الفكـــرة بما تتضمنه من شمول تتضمن مقولة أخرى هي العدم الـــذي يتمثـــل فـــي الحشد الهائل من الحاجات والانفعالات والأهواء البشرية ، وتثيرها كنقيـــض لها يسلبها سلباً قاطعاً وتتنازع معها . وهذا التحول ذاته هو المقولة الثالثـــة التي تمزجهما معا في حد أعلى هو فكرة الصيرورة وهكذا تستمر الحركـــة إلى أن تنتهي إلى مقولة أكثر واقعية وقرباً من التشـــخص الفـــردي وهـــى الوعي بالحرية وهذا لا يتحقق إلا داخل الدولة .

فالحرية هي الهدف النهائي من كل الصراعات والحروب التي قامت في التاريخ . وهى الهدف النهائي الذي قدمت من أجلـــه التضحيـــات علـــى

مذبح الأرض الواسعة طوال عصور التاريخ . إن هذا الـــرأي لا يقنـــع ولا يرضى ، إنه يحمل في طياته بواعث دينية ترتدى ثوب الفكر ، بيد أننا نميـل كثيراً إلى عبارة روسو الشهيرة وهى أن "الإنسان ولد حراً " .

ثانياً : وعلى أساس الجدل ينقسم التاريخ إلى حقب ثلاث رئيســية وهــى : الحقبة الشرقية ، الحقبة اليونانية الرومانية ، والحقبة الجرمانيـــة . ففـي الحقبة الأولى تكون الروح مستغرقة وغـير واعيـة للحريـة ، وخاضعـة للاستبداد المدني والروحي ومن ثم لا يوجد إلا واحـد فقـط هـو الحـر ، وحقوق الأفراد تكون مجهولة . وفى الحقبة الثانية تســتيقظ الـروح فـي البعض لهذه الحقوق ، فالبعض وليس الكل ، هم أحـرار . وفـى الحقبـة الثالثة ، الروح تعرف ذاتها كما هي بوصفها روح حـرة فـي أساسـها ، وتعرف أن الكل له حقوق طبيعية فـي الحريـة العقليـة . وكـانت الأمـم الجرمانية تحت تأثير المسيحية أول أمة وصلت إلى الشعور بأن الإنســان ، بما هو إنسان ، حر : وإلى أن حرية الروح هي التي تشكل جوهرها . فـهذا الشعور استيقظ أول مرة في الدين ، وهو أكثر المجالات روحانية. في هـذا التقسيم ثمة عنصرية لا مبرر لها ، ولا يؤيدها التـاريخ بـأي حـال مـن الأحوال . إن اختيار هيجل وانحيازه للأمم الجرمانية بالذات إنمـا يذكرنـا بفكرة الشعب المختار فكأن الروح التي تحكم تاريخ العالم وتسيطر عليه قـد اختارت الأمة الجرمانية وفضلتها على غيرها من الأمم ، وجعلـت الحريـة أساساً لها .

ثالثاً : إن موضوع الجدل أو حده الأول في حالة العالم اليوناني إنما يتمثـل في عدم وجود ذاتية . والفكر المستقل في هذا العالم يصبح على هذا النحـو عنصراً هداماً . وهو الذي أدى إلى انهيار الحضارة اليونانيـة . والتحـول الحاسم في تاريخ اليونان القدماء هو الاتجاه نحو الذاتية . فـهذا التحـول يمثل نقيض الموضوع في الجدل أو حده الثـاني فمبـدأ الذاتيـة هـذا أي الاستقلال الطبيعي المطلق للفكر قد بلغ عند سقراط مستوى التعبير الحـر . وعنده أن على الإنسان أن يكتشف ويدرك بذاته ما هو حـق وخـير ، وأن

هذا الحق والخير هو كلى في طبيعته . والروح الفاسدة في العالم اليوناني التي تمثلت في شخص سقراط أصبحت هذه الروح في العالم الروماني الأساس الذي انطلق منه ذلك الجانب الجديد من تاريخ العالم . وفى التاريخ يكون المركب في الحركة الجدلية ككل هو المجتمع الجرماني في عصر هيجل الذي رآه منسجماً لأنه مجتمع عضوي وبالإضافة إلى ذلك فإنه يحافظ على الحرية الفردية لأنها حرية عضوية على نحو عقلي .

إن الجدل في التاريخ ليس إلا فكرة وهمية نسجها هيجل من وحي خياله ، فإذا أمكن تطبيق الجدل على جانب من التاريخ فإنه قد لا يكون مطبقاً تطبيقاً كاملاً في جانب آخر ، كما أنه قد لا يمكن تطبيقه في جوانب أخرى على الإطلاق . فلو كان الجدل دقيقاً ومكتملاً لاستوعب في جوفه جميع أمم الأرض دون استثناء ، لكن الواقع عند هيجل غير ذلك . إن هيجل صمم الجدل وحدد حركته في التاريخ لكي يجد لنزعته جذوراً تاريخية ولكي يحقق أيضاً التواصل والربط بين الماضي والحاضر .

رابعاً : تختلف نظرة هيجل إلى التقدم عن نظرة العقليين المثاليين في القرنين السابع عشر والثامن عشر في أن التقدم عند هؤلاء لا ينتهي إلا في المستقبل عندما يبلغ المعقولية والحرية والسعادة . أما التقدم عند هيجل فإنه لا ينتهي في المستقبل وإنما في الحاضر وفى دولة بروسيا. ويتوقف معه أيضاً الجدل. إن نظرية هيجل في التاريخ ليست إلا تأملاً مفرطاً في أحداث الماضي ، وهذا هو شأن التفكير في القرن التاسع عشر .

خامساً : تتضمن نظرية هيجل في التاريخ أبعادا لاهوتية عميقة وهى :

١- إن هذه النظرية شبيهة بنظرية القديس أوغسطين لكنها ترتدى ثوب العقل ، فالروح عند هيجل تهيمن على تاريخ العالم وتوجه أحداثه . وتقرر نظرية أوغسطين أن أحداث التاريخ تحكمها العناية الإلهية . فهما يشتركان في القول بوجود عامل لا شخصي يعلو على التاريخ ويسيطر عليه .

٢- المدينة السماوية عند أوغسطين تنتقل عند هيجل فتصبح مدينة البشر في دولة بروسيا تحقق فيها المساواة والانسجام بين الإرادة الذاتية والإرادة الموضوعية . فهيجل هو ذاته أوغسطين العقلاني في العصر الحديث .

٣- أوضح هيجل في مخططه للتاريخ الكلى للعالم أن الظلم والشر سمة أساسية للبشر ، وقد جاءت المسيحية لتخلص الناس من هذه الحالة البربرية. هذا ما أبرزه هيجل في مخططه .

٤- وأخيرا فإن حركة الإصلاح الديني كان لها عظيم الأثر على فلسفة هيجل فالإصلاح قد أعاد قبول الحق المقدس للضمير الفردي وكان الإصلاح أيضا إنقلابا على تعاليم الكنيسة ، وخصوصا ممارسة الغفرانات المزيفة والطاعة العمياء من جانب أتباعها لها . والمهم أن هيجل استفاد كثيرا من أفكار الإصلاح الخاصة بالعنصر الذاتي .

1- Hegel – The philosophy of History – Translated by J. Sibree – New York – 1956.
2- Aiken Henry D. the Age of ideology, the new American library.
هنرى د . أيكن – عصر الأيدولوجية – ترجمة دكتورفؤاد زكريا – مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٣ .
3- Ball Alan R. Modern Politics – and Government – Third Edition Macmillan London and Basingstoke – 1983
4- Barrnes Harry Elemer A History of Historical Writing New York – 1963.
5- Baumer Franklin L. Modern European thought – Macmillan – London – 1977.
6- Berlin Isaiah , four essays on liberty , Oxford university press , London ,1969 .
7- Edwards [Paul], the Ency of philosophy, Vol , 3-4, Collier Macmillan, London, 1976.
8- Lowith karl – meaning in history – Chicago, press –1949
9- Schweitzer – Civilization and Ethics, the philosophy of civilization translated by C.T. Campion –1929.
وقد ترجمه إلى العربية دكتور عبد الرحمن بدوى ضمن كتاب فلسفة الحضارة .
10- Singer Peter – Hegel – Oxford university Press –1982 .
11- Stace – W . T . the philosophy of Hegel – New York - 1955.
ولتر ستيس – فلسفة هيجل – ترجمة دكتور إمام عبد الفتاح إمام – دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٨٠ .
12- Stevenson Leslie , Seven theories of Human Nature , New York and Oxford , 1973.
13-Tomlin E.W.F. – The great philosophers the western world skeffington and son LTD – 1958.

١- دكتور إمام عبد الفتاح إمام – المنـــهج الجدلـي عنـد هيجـل – دار المعارف بمصـر – ١٩٦٩ .

٢- دكتور حسن عثمان – منهج البحث التاريخي – دار المعارف – الطبعـة الرابعة ١٩٦٤.

٣- دكتور زكريا إبراهيم – عبقريات فلسفية – هيجل أو المثالية المطلقـة – دار مصر للطباعة ١٩٧٠.

٤- دكتور عبد الرحمن بدوى – فلسفة القانون والسياسة عنـد هيجـل – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – ١٩٩٦.

٥- الفكر العصري – هيجل – مقالة بعنوان المنهج الجدلي عند هيجـل – دكتور إمام عبد الفتاح إمام – دار الهلال ١٩٦٨ .

٦- كولنجود – فكرة التاريخ – ترجمة محمد بكير خليل – لجنة التـأليف والترجمة والنشر١٩٦٨.

٧- دكتور محمد ثابت الفندى – أصول المنطق الريـاضي – دار المعرفـة الجامعية – ١٩٨٧.

٨- دكتور محمد ثابت الفندى– مع الفيلسـوف– دار المعرفـة الجامعيـة ١٩٨٧.

٩- هربرت ماركيوز – العقل والثورة – هيجـل النظريـة الاجتماعيـة – ترجمة دكتور فؤاد زكريا – الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٩ .